وليد فكري

أساطير مقدسة

أساطير الأولين في تراث المسلمين



الرواق للنشر والتوزيع


اقْرَأْ
مكتبة الكندل العربية

أساطير مقدسة

أساطير الأولين في تراث المسلمين

وليد فكرى

الرواق للنشر والتوزيع

أساطير مقدسة : أساطير الأولين في تراث المسلمين
وليد فكري
الطبعة الاولى يناير 2018
الغلاف: أحمد مراد
التصحيح اللغوي: محمد حمدي
رقم الايداع: 2017/25632
الترقيم الدولي: 978-977-824-013-9

186عمارات امتداد رمسيس - 2 أمام أرض المعارض- مدينة نصر

هاتف: 0220812006

rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

للنشر والتوزيع

إهداء

إلى من قيل له «لا تكثر من التفكير والبحث حتى لا تضل»، فعَصَى وقد عرف جيدًا أن خير حمد لله على نعمة العقل هو استخدامه.

وليد فكري

تنويه قبل أن تقرأ

كاتب هذه الصفحات يلزم نفسه أن يحيّد جانبًا انتماءه الديني أو الفكري، في أثناء اشتغاله بالبحث التاريخي، حرصًا منه على التزام الموضوعية والدقة العلمية، وبالتالي فإن تعامله مع أية نصوص دينية مقدسة في هذا الكتاب هو باعتبارها من المصادر الهامة للمعرفة والتحليل التاريخيين، بصرف النظر عن موقفه الشخصي منها أو من تفسيراتها.. مع كامل الاحترام لمختلف المعتقدات ووجهات النظر اتفقنا أو اختلفنا معها.

كيف صارت الأساطير مقدسة؟

عندما أراد النضر بن الحارث ـ أحد ألد أعداء الرسول محمد من القرشيين ـ تكذيب ما في القرآن الكريم من قَصص، قال لقومه: «محمد ما يقص عليكم إلا أساطير الأولين»، لم يقل «أخبار» أو «أنباء» الأولين، وهما مصطلحان يفيدان حقيقة وقوع ما يُروَى»، وإنما وصف القَصص القرآني بأنها «أساطير» تكذيبًا لها، فالأساطير في اللغة هي الأباطيل من الحديث.

وبينما كان أعداء الدين الجديد من القرشيين يتلقون قصص القرآن بالإنكار والسخرية، كانت الآيات التي تذكر أقوامًا غابرين، كعاد وثمود وأقوام إبراهيم وموسى، وأشخاصا كالخضر وذي القرنين والنبي سليمان وملكة سبأ، وأحداثا جليلة كخلق العالم وهبوط آدم من الجنة، تستفز فضول المسلمين الجدد لمعرفة مزيد من التفاصيل حولها.. لهذا لم يكتف بعضهم بما كان الرسول

محمد يفسره لهم، وبحثوا في كتب السابقين ـ بالذات اليهود ـ عن تفاصيل شافية.

وتصاعَد هذا الشغف بالمعرفة عندما أسلَم أحد أبرز أحبار اليهود، وهو «كعب الأحبار»، في عهد عمر بن الخطاب، وصار يحدث بما في التوراة وشروحها وكتب علماء دينه السابق، ويقال إن ابن الخطاب كان يتركه يتحدث بذلك تأليفًا لقلبه، فضلاً عن أن المسلمين كانوا مطمئنين ألا حرج عليهم في ذلك، لما نسب للرسول محمد من قوله «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» (والمقصود هنا التحديث عنهم للعظة بغير تصديق أو تكذيب).. كذلك فإن ثمة رواية تقول إن عبد اللـه بن عمرو بن العاص قد عثر، بعد موقعة اليرموك، في الشام على حقيبتين بهما بعض كتب أهل الكتاب، فكان يحدّث الناس بما فيها.

ولنترك هذا الزمن ونتحرك عبر الزمن قرنين من الزمان، عندما كانت الدولة الإسلامية قد اتسعت لتضوي تحت رايتها شعوبًا وأممًا عريقة، كمصر والشام والعراق وفارس، ولتحكم ـ إلى جانب المسلمين ـ أهل أديان متنوعة كالمسيحية واليهودية والصابئة والمجوس وغيرهم، ولتصبح حواضر الإسلام ـ أي مدنه الكبرى ـ مراكز لاستيراد وتصدير الثقافة، بخاصة مع ازدهار حركة الترجمة لكتب الحضارات السابقة.

أدى ذلك ـ بطبيعة الحال ـ إلى تسلل بعض محتويات ثقافات الأقدمين للفكر الإسلامي الذي تنوعت مدارسه وتوجهاته، وامتزج بعضها بالشِق الديني ليتمخض عن مدارس فكرية متنوعة، ولم يكن علم تفسير القرآن وعلم الحديث ببعيدين عن هذا التأثير، فقد تأثر بعض المفسرين والمحدثين بما جاء في كتب أهل الكتاب من كتابات ذات صلة بالقصص القرآني، فاعتمدوها في رواياتهم وتفسيراتهم، وصاروا يروونها على الناس في مجالسهم وكتاباتهم، وبينما مال من يصفهم المشتغلون بالعلوم الدينية بـ«العوام» لتصديقها، انتقدها آخرون كالمفكر البارز في مذهب «المعتزلة» أبو إسحاق النظام الذي قال: «لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين، وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا في كل مسألة، فإن كثيرًا منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم»!

هذه الأخبار يصنفها المتخصصون في الأحاديث النبوية وتفسير القرآن بـ«الإسرائيليات»، هل تبدو الكلمة مألوفة للقارئ؟ المعنى الشائع لها هو «بعض ما تسلل من كتابات اليهود/بني إسرائيل للقصَص الديني الإسلامي»، ولكن لنكون أكثر دقة فإن مصطلح «الإسرائيليات» يعني «كل ما قد جاء في كتب أهل الكتاب ـ بالذات اليهود ـ وهو ينقسم إلى أمور تتفق مع القصص الإسلامي فيصدقها المسلمون، وثانية لا يصدقونها ولا يكذبونها لعدم وجود ما

يثبتها أو ينفيها، وأخرى مرفوضة إما لتعارضها مع نصوص صريحة وإما لعدم معقوليتها».

لكني لا أرى اقتصار نسب هذه الروايات على كتب أهل الكتاب دقيقًا، فالقارئ المتأمل فيها يدرك وجود تأثيرات لثقافات أخرى من بقايا حضارات العالم القديم، ففي قصة الخلق ـ مثلاً ـ نقرأ عن ملاك يحمل العالم على كتفيه، وهو هنا يشبه قصة العملاق أطلس الذي عاقبه زيوس كبير آلهة اليونان بحمل قبة العالم، وفي قصة ذي القرنين نجد تداخلاً مع رحلة الإسكندر المقدوني، والثور الذي تخرج قرونه من الأرض يشبه «الثور السماوي» في التراث البابلي، وخبر الشمس التي يجرها 360 ملاكًا في رحلة يومية من الشرق إلى الغرب يقارب كثيرًا أسطورة إله الشمس المصري القديم رع ورحلته على مركب الشمس.. وهكذا نرى أن مصطلح «الإسرائيليات» قاصر جدًا عن وصف تلك القصص التي اعتمدها كُتّاب مسلمون مشهورون، مثل القزويني والمسعودي والثعلبي النيسابوري وغيرهم، في كتاباتهم عن القَصص الديني، حتى وإن كانوا هم أنفسهم قد نسبوا بعض رواياتهم لكعب الأحبار، ونسبوا بعضها الآخر لبعض الصحابة كعبد اللـه بن عباس وأبي هريرة.

هؤلاء الكُتاب قد تأثروا كثيرًا بـ«أساطير الأولين»، على اختلاف أصولها، فضمنوها كتبهم ورواياتهم، وبينما سهل على المشتغلين بعلمي الحديث النبوي والتفسير القرآني تفنيدها والرد عليها، فإن الآلاف من «العوام» قد تقبلوها وصدقوها دون التزام بمعايير التمييز والانتقاء بينها، فأصبحت في وجدانهم الجمعي قصصًا مقدسة وجزءًا من معتقداتهم الدينية، مهما بلغت من اللامعقولية أو التعارض مع النصوص.. وبالتالي فقد أصبحت مهمة المشتغل بعلمي تفسير القرآن والحديث أكثر صعوبة.

هكذا تحوَل الأسطوري عبر الزمن إلى مقدس.. وهكذا حوّل كل من الراوي والمستمع القصصَ القرآني إلى «أساطير الأولين» بالمعنى الذي وصفه النضر بن الحارث سالف الذكر، وصار لدينا ما يمكن وصفه بـ«الأساطير الإسلامية»، و«الإسلامية» هنا ليست نسبًا إلى الدين الإسلامي، وإنما إلى الحضارة والثقافة الإسلامية التي تضمنت موروثاتها تلك الأساطير.

* * *

ما الهدف إذن من هذا الكتاب؟

لا أخفي سرًا إن قلت إنني عند شروعي في إعداده، كنت أخشى أن يقع في دائرة سوء الظن، سواء من جانب من يفسد تسرعه حسن فهمه، أو من يفترض سوء النوايا على طول الخط في كل من يتناول التراث الإسلامي

بالبحث والكتابة.. ولكنني في كل الأحوال أقولها بشكل صريح: غرض هذا الكتاب هو العرض والبحث في موضوعات يصنفها أهل العلوم الدينية أنفسهم باعتبارها غير مطابقة للحقيقة بالضرورة، وهم أنفسهم يقولون للناس «لا تنساقوا خلال قراءة هذه الموضوعات إلى تصديق كل ما يرد فيها، لأن بكثير منها تفاصيل غير حقيقية، بل ويتعارض بعضها مع صريح النصوص الدينية أو الأحاديث، وبعضها يعتمد على أحاديث غير صحيحة».

فإن كان أهل علمي الحديث والتفسير بفروعهما يهتمون بالبحث في هذه «الأساطير المقدسة» من منطلق تنقية الموروث الإسلامي ومعتقدات الناس منها، فإن الباحث في التاريخ يهتم بها من منطلق آخر، هو محاولة فهم كيفية تحولها من مجرد أساطير وأباطيل إلى قصص مقدسة راسخة في ضمائر الآلاف من غير الملمين بكيفية تمحيص الروايات، وتنقيتها مما بها من دَس وتحريف.

لهذا رأيتُ أن يكون هذا الكتاب عرضًا لأبرز ما يمكنني وصفه بـ«الأساطير الإسلامية» التي قصّها بعض الرواة والإخباريون، باعتبارها حقائق واقعة، مع محاولة لتحليل تلك الأساطير وكشف أصولها، وما أثّر في فكر رواتها والمروجين لها.

فعن الأساطير المقدسة، عن أساطير الأولين التي تسللت إلى التراث الإسلامي، نتحدث..

I

كـيف بـدأ الـخَلق؟

بينما تضمنت آيات القرآن وصفًا لبعض مراحل الخلق، احتوت أسطورة الخلق الإسلامية على تفاصيل لم تذكرها تلك الآيات..

تبدأ الأسطورة بأن اللـه قد خلق جوهرة خضراء حجمها أضعاف حجم السماوات والأرض، ثم نظر لها فتحولت من فرط هيبته إلى ماء، فنظر إلى الماء فغلَى الماء من أثر الهيبة وتصاعد بخاره وسما فصار «سماء»، وصار هذا الدخان يصدر صوت الرعد إلى يوم القيامة من خشية اللـه.

أما الماء فقد تحول إلى يابسة، وكان أول ما ظهر منها موضع مكة، فلهذا لُقِّبَت بـ«أم القُرَى».

ثم دحا اللـه الأرض من تحت مكة، فهذا معنى قوله في القرآن «والأرض بعد ذلك دحاها»، أي صارت كالدحية، والدحية هي البيضة.

ثم فتق اللـه السماء والأرض فصارت سبع سماوات وسبع أراض، وهو ما يعنيه قوله «كانتا رتقًا ففتقناهما».

ولكي تستقر الأراضي السبع أنزل اللـه ملكًا يحملها على كتفيه، فوضع إحدى يديه بالمشرق والأخرى بالمغرب وأمسك تلك الأراضي بقبضتيه.

لكن الملك لم يكن تحت قدميه شيء، فأنزل اللـه من الجنة ثورًا عملاقًا له أربعون ألف قائمة وسبعون ألف قرن، ووضع الأراضي بين عنقه وظهره، وصارت قرونه بارزة من سطح الأرض العليا، وصار منخاراه في البحر، فكلما تنفس وقعت ظاهرة المد والجَزر.

وتكررت المشكلة، فقوائم الثور لم يكن لها موضع تستقر عليه، فخلق اللـه صخرة خضراء سُمكها كسُمك السماوات والأرض فجعلها تحت قوائمه.. ولكي

تستقر تلك الصخرة خلق اللـه حوتًا عظيمًا اسمه «نون» ـ وعلى حد الرواية فهو المقصود في الآية «ن والقلم وما يسطرون» ـ ووضع الصخرة بما عليها فوق ظهره.

وحاول إبليس أن يدمر هذا الكون، فتسلل إلى الحوت ووسوس له أن يتخفف من أثقاله بأن ينتفض ويلقيه عن ظهره، فأرسل اللـه دابة ـ غالبًا حشرة ـ دخلت إلى مخ نون عبر منخاره فعذبته، فدعا اللـه أن يرحمه من هذا العذاب، فأخرجها اللـه من رأسه وجعلها أمام عينيه تهديدًا له إن عاد للتفكير في التمرد.

وليزيد اللـه استقرار الأرض، خلق الجبال وثبت الأرض بها، وجعل سيدها الجبل «قاف» محيطًا بالأرض، وقد خرجت منه عروق متصلة بكل الجبال، فإذا أراد اللـه أن يزلزل موضعًا من الأرض أمر «قاف» أن يحرك العرق المتصل به فتحدث الزلازل، وهو «قاف» المذكور في الآية «ق والقرآن المجيد».

وخلق اللـه من نور عرشه شمسين، ثم رأى أن وجود شمسين سيجعل من المتعذر تمييز الأوقات والمواسم، فأمر مَلَكًا أن يمرر جناحه على إحداهما فمحا نورها الساطع فصارت قمرًا، ولهذا تُرى على القمر علامات معتمة، وهو قول القرآن «فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة».

وجعل اللـه للشمس عجلة بها 360 عروة، وبكل منها ملكًا، فهم يدورون بها في رحلة يومية من مشرقها إلى مغربها، والقمر يتبعها، ثم يعودان ليلاً إلى العرش الإلهي فيسجدان عنده، وتنتظر الشمس أمر ربها أن تطلع من المشرق أم من المغرب، حتى إذا ما قرر اللـه دنوّ القيامة أمرها أن تطلع من المغرب معتمة، فتكون هذه علامة على إغلاق باب التوبة نهائيًا.

وجُعلَ بحر في السماء بين الشمس والقمر من ناحية، والأرض من ناحية أخرى، وهو يدور حول الأرض بسرعة خارقة، فلولاه لأحرقت الشمس سطح العالم ولفَتَن القمر البشر فعبدوه من دون اللـه (وكأنهم لم يعبدوه بالفعل!).

وخلق بأقصى مشرق الشمس مدينة أسكن بها بقايا نسل قوم عاد ممن آمنوا بالنبي هود، وبأقصى مغربها مدينة أخرى يسكنها بقايا نسل ثمود الذي آمنوا بالنبي صالح، وهم أمم أعدادهم ضخمة، حتى إن أبواب المدينة منهما يحرسها كل ليلة عشرة آلاف ثم لا يعودون لنوبة الحراسة أبدًا حتى قيام الساعة، ولولا ضجيجهم لسمع أهل الأرض صوت الشمس وهي تشرق ثم وهي تغرب.. وحين أسرى اللـه بالنبي محمد بعثه لأهل المدينتين ليدعوهم للإسلام فآمنوا به فهم مسلمون.. (وهنا يُطرَح سؤال منطقي: كيف خلق اللـه

هاتين المدينتين وأسكنهما مؤمني عاد وثمود قبل أن توجد عاد وثمود أصلاً بقرون؟!).

أما الأراضي والسماوات السبع فقد جعل اللـه لكل منها سكانها، وجعل بين كل أرض وتاليتها مسافة تعادل مسيرة خمسمئة عام، وكذلك المسافة بين كل سماء وتلك التي تعلوها..

فالأرض الأولى هي أرضنا التي نعيش على سطحها.

والأرض الثانية جعلها مصدر الرياح المختلفة.

والأرض الثالثة يعيش بها قوم وجوههم وأيديهم كوجوه وأيدي البشر، وأفواههم كأفواه الكلاب، وأرجلهم كأرجل البقر، وآذانهم كآذان الماعز، وعلى أجسادهم صوف كما للغنم، وهم لا يعصون اللـه أبدًا، وليلهم هو نهارنا وليلنا نهارهم.

وجعل اللـه في الأرض الرابعة وديانًا من الكبريت الملتهب، أعدها ليشعل بها نار جهنم.

وجعل في الأرض الخامسة عقارب لتعذيب أهل النار، هذه العقارب عملاقة في أحجام البغال، ولكل منها ذنَب مثل الرمح به 360 فقرة، في كل فقرة 360 نوعًا من السم، ولكل نوع 360 غدّة لو وُضِعَت واحدة منها في وسط الأرض لقتلت البشر جميعًا، وجعل فيها حيّات أحجامها كالوديان ـ لتعذيب أهل النار أيضًا ـ لكل منها 18000 ناب، وفي كل ناب 18000 غدة تفرز السم الكافي ـ على حد قول الراوي ـ لتدمير الجبال.

أما الأرض السادسة فجعل بها دواوين أعمال أهل النار، وسجنًا لأرواحهم، وسمّاها «سِجِّين»، وهي المذكورة في القرآن «إن كتاب الفُجّار لفي سِجّين».

والأرض السابعة والأخيرة هي مسكن إبليس وجنوده من المردة والجن والشياطين، ومنها يرسلهم إبليس لفتنة بني آدم.

ثم يذكر راوي الأسطورة أن قارون حين خُسِفت به الأرض عوقب بأن يُخسَف به كل يوم مقدار قامة إنسان، على مدى مسافة سبع أراض، بين كل اثنتين منها مسيرة 500 عام، فهو يُخسَف به إلى قيام الساعة.

أما السماوات السبع، فالأولى منها هي السماء الدنيا بما فيها من كواكب ونجوم..

وبها ملائكة خلقهم من نار ورياح، ووكّل بها ملاك اسمه الرعد وجعله مسؤولا عن السحب والأمطار.

والسماء الثانية بها ملائكة من ألوان مختلفة، واقفون صفًا بانضباط حتى إنك لو أسقطت شعرة بين كتف أحدهم وكتف الذي بجواره ما سقطت لالتصاقهما كأحجار البنيان، هؤلاء الملائكة يرددون «سبحان ذي العزة والجبروت»، وفيها ملك اسمه «حبيب» نصفه من نار ونصفه الآخر من ثلج وبينهما فاصل، فلا ثلجه يطفئ النار ولا النار تطفئ الثلج وهو يردد «يا من ألَّف بين الثلج والنار ألِّفْ بين قلوب عبادك».

وفي السماء الثالثة ملائكة ذوو أجنحة وهيئات متنوعة، مصطفون بنفس انضباط ملائكة السماء الثانية، حتى إن أحدهم لا يعرف هيئة الآخر من خشية اللـه، يقولون «سبحان الحي الذي لا يموت أبدًا».

والسماء الرابعة بها ملائكة أضعاف أعداد ملائكة السماء الثالثة، يزيد عددهم كل يوم وهم يرددون «سبوح قدوس ربنا الرحمن الذي لا إله إلا هو»، وهو يكلفهم بالمهام فينطلق كل منهم لمهمته لا ينظر لوجه رفيقه من خشية اللـه.

وكذلك السماء الخامسة بها أضعاف أعداد ملائكة السماء الرابعة ويزيدون، وهم كملائكتها في الطاعة والخشوع، وهم دومًا راكعون ساجدون لا يرفعون رؤوسهم، حتى إذا قامت الساعة قالوا «سبحانك لم نعبدك حق عبادتك».

أما السماء السادسة ففيها ملائكة اسمهم «الكروبيون» ـ أي المقربون ـ عددهم سبعون ألف ملك، تحت كل ملك سبعون ألفًا من جنود الملائكة، وهم الذين يبعثهم اللـه إلى أهل الدنيا في مهام محددة.

وفي السماء السابعة قادة جند اللـه من الملائكة، ولا يعلوهم سوى جبريل وحملة العرش، لكل ملك منهم عدة وجوه وأجنحة كثيرة، لو انطبقت ريشة جناح أحدهم على الدنيا لسحقتها، وهم سبعمئة ألف ملك تحت كل ملك منهم عدد الرمال وقطرات الماء من الأتباع.

وفوق كل ذلك غمامة سُمكها كسُمك السماوات والأرض، والعرش من فوقها.

* * *

هذه القصة حول خلق الكون دوّنها الكاتب «الثعلبي النيسابوري» في كتابه الشهير «عرائس المجالس»، ويضيف لها الكاتب «زكريا القزويني» وصفًا للملائكة، فيبدأ بذكر حَمَلة عرش اللـه قائلاً إنهم أربعة لأحدهم وجه آدمي، وللثاني وجه كالبقر أو الثور، وللثالث وجه أسد، وللرابع وجه نسر.

ثم يتناول بالتفصيل وصف هيئات وألوان قادة الملائكة، جبريل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل، ثم ملائكة كل سماء، ويختم ما كتب عن الملائكة بوصف المَلَكَين هاروت وماروت وكيفية عذابهما بأرض بابل.

بسهولة يدرك القارئ مدى سذاجة الأسطورة سالفة الذكر، بل وتعارضها مع صريح النص القرآني، فالقرآن يتحدث عن الخالق باعتباره كامل القدرة، عليم خبير بما يفعل «هو الخلّاق العليم»، بينما تقدمه الأسطورة كإله يجرب أمرًا فإذا لم يُجدِ جرب غيره، ويخلق العالم بطريقة معقدة تتعارض مع الآية «إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون».

ونلاحظ أيضا اهتمام المؤلف المجهول لتلك الرواية بإشباع فضول المتلقي حول الحروف المقطعة، الوارد بعضها في أول آيات بعض سور القرآن، مثل «ق والكتاب المجيد» أو «ن والقلم وما يسطرون»، فهذه الأحرف قد اختلف المتخصصون في أمرها ولكنهم اتفقوا على أن اللـه قد أخفى سرها لحكمة عليا، فلا داعي للوقوف عندها كثيرًا، بل وقد أفتى بعضهم بعدم جواز البحث في أمرها.. ومع ذلك فقد احتوت قصة الخلق المذكورة على بعض البيان لها.

كذلك فإن المتأمل في الأسطورة والقارئ في أساطير الشعوب القديمة، يدرك تأثر واضعها بتلك الأساطير.

ففكرة المَلَك الذي يحمل العالم على كتفيه تطابق قصة «أطلس» ـ من أساطير الإغريق ـ العملاق المتمرد على زيوس كبير الآلهة والذي عاقبه بأن يحمل قبة العالم على كتفيه.. والثور الهابط من الفردوس نجد له ندًا في الأساطير البابلية هو «الثور السماوي» الذي أهبطته الإلهة عشتار ليدمر مدينة الملك جلجامش، من الملحمة التي تحمل اسم هذا الأخير.. فضلاً عن تكرر نموذج «الثور السماوي» في الإله الفينيقي «إيل الثور» خالق العالم، والإله العراقي «أشور» صاحب جسد الثور المجنح والرأس البشري، وكذلك نجد أن الثور قد عُبِدَ في بعض بلاد العرب مقترنًا بالقمر، بل وقدّس المصريون القدماء ابن الثور ـ العِجل ـ أبيس.

ونظرية العالم المستقر على ظهر الحوت نرى لها شبيهًا في أسطورة آسيوية حول العالم المحمول على ظهر سلحفاة.

ورحلة الشمس اليومية نقرأ عنها في تراث المصريين القدماء في «رحلة رع» حاملاً قرص الشمس على مركبته من الشروق إلى الغروب، كذلك في موروث اليونان القدامى عن الإله أبوللو الذي يقود عربة الشمس كل يوم.

أما وصف القزويني لملائكة العرش فيلفت الانتباه بمدى تشابه هيئات هؤلاء الملائكة مع بعض آلهة الشعوب القديمة، بالذات المصريين، فحورس كان يُصَوَر بجسد بشري ورأس طائر جارح، وحتحور كان لها رأس بقرة، أما الإلهة

سخمت فكانت برأس لبؤة، وثمة نظرية خرج بها البعض تقول إن من صورهم المصريون على جدران معابدهم لم يكونوا ـ في المعتقد المصري القديم ـ آلهة بل كانوا يعبرون عن تصور المصريين للملائكة، فهل تأثر القزويني ـ أو من نقل عنه هذا التخيل لملائكة العرش ـ بهذه التصاوير؟

وثمة ملاحظة لأمر يتكرر في الأساطير الإسلامية، بل وفي بعض كتابات المؤرخين، وهو الولع بالمبالغات في الأعداد، كالمسافة بين السماوات والأراضي، وأعداد الملائكة، وعدد أنياب حيّات أهل النار وفقرات أذناب عقاربهم.. هذه المبالغة في التعامل مع الأعداد ذكرها المؤرخ والمفكر عبد الرحمن بن خلدون في كتابه «المقدمة».

هذا المزيج من السذاجة والمبالغة سنلاحظ تكراره في الأساطير التالية.

إذن فقد خلق اللـه العالم، ورتب سكانه، فلم يبق إلا خلق ذلك المخلوق الذي قرر الإله جعله خليفة في الأرض... فما قصة خلق وتقدير مصير هذا الكائن: الإنسان؟

هذا ما سنعرفه في الفصل الثاني.

II

عن خَلق البشر واختلاف مصائرهم

لخلق الإنسان أكثر من أسطورة في الموروث الأسطوري الإسلامي، تختلف في أحداثها وتتفق في احتوائها على رمزيات كثيرة.

الأسطورة الأولى تقول إن اللـه قد أمر الملاك جبريل أن يأتيه بقبضة من تراب الأرض، فلما هبط لينفذ الأمر الإلهي استعاذت منه الأرض أن يقبض منها شيئًا لتُخلَق منه كائنات يصير بعضها إلى النار، فرجع جبريل وهبط ميكائيل للقيام بالمهمة، فأعادت الأرض ردها، فهبط عزرائيل ولما استعاذت باللـه منه أجابها أنه يعوذ باللـه من ألا ينفذ أمره، فقبض من ترابها قبضة متنوعة من مختف أرجاء الأرض وأنواع تربتها، فصار هو الموكل بعد ذلك بقبض الأرواح، ولاختلاف ما قبض منها كان اختلاف وتنوع البشر.

وأمر اللـه عزرائيل أن يعجن التراب بماء متنوع ـ عذب ومر ومالحـ وأن يجعله طينًا ويتركه يتخمّر، فلتنوع ما عُجِنَ به التراب تنوعت أخلاق الناس.

ثم بعث اللـه جبريل ومعه مجموعة من الملائكة «الكروبيون» (المقربون) ليقبضوا قبضة من التربة البيضاء، التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها، ليخلق منها الرسول محمد، فهبط جبريل وقبض من الموضع الذي سيصير بعد ذلك قبر النبي، فعجنها بماء نهر التسنيم حتى صارت دُرة بيضاء متلألئة، ثم غمسها في ماء أنهار الجنة.

ونظر اللـه للدرة البيضاء نظرة إلهية، فانتفضت من هيبة اللـه وقطرت منها ألف قطرة، فخلق اللـه من تلك القطرات الأنبياء، وطيف بالدرة في السماوات والأرض فعرف الملائكة الرسول محمد قبل أن يعرفوا آدم.

ثم عجن اللـه الدرة المحمدية بطين آدم وتركها أربعين عامًا حتى صارت طينًا لينًا.

ثم تُرك الطين أربعين عامًا أخرى حتى صار كالفخار.

ثم جُعِلَ الطين جسدًا وألقي على طريق ذهاب وإياب الملائكة لحين نفخ الروح فيه.

وفي رواية ثانية يقال إن آدم قد خُلِقَ من تراب أقاليم الأرض المختلفة، فرأسه وجبهته من تراب الكعبة، وصدره وظهره من بيت المقدس، وفخذاه من اليمن وساقاه من مصر وقدماه من الحجاز، ويده اليمنى من المشرق ويده اليسرى من المغرب.

وثمة رواية موازية تجعل خلقه من طبقات الأراضي السبع، فرأسه من الأولى، والعنق من الثانية، والصدر من الثالثة ويداه من الرابعة وصدره وبطنه من الخامسة، وفخذه وعجزه من السادسة وقدماه من الأرض السابعة.

ويحلل الباحث د. محمد عجينة في كتابه الممتع «موسوعة أساطير العرب» هاتين الأسطورتين، فيقول إن الأولى ترمز إلى وحدة أقاليم الأرض ـ أرض الإسلام تحديدًا ـ بينما ترمز الثانية لوحدة الأراضي في هيئة جسد آدم.

وثمة أسطورة منسوب حديثها للصحابي عبد اللـه بن عباس، تقول إن اللـه قد خلق جسد آدم من أقاليم الدنيا، فرأسه من تراب بيت المقدس، ووجهه من تراب الجنة، وأذناه من طور سيناء، وجبهته من تراب العراق، وأسنانه من تراب نهر الكوثر بالجنة، ويده اليمنى من تراب الكعبة، واليسرى من تراب بلاد فارس، ورجلاه وساقاه من تراب الهند وعظامه من تراب الجبال، وعورته من بابل وظهره من العراق وبطنه من إقليم خراسان، وقلبه من تراب فردوس الجنة ولسانه من تراب الطائف.

وربط ابن عباس في حديثه كل عضو مأخوذ من تراب إقليم بصفة رآها في هذا الإقليم، فقال إنه لأن الرأس من تراب المقدس صار الرأس موضعًا للعقل والنطق، وصارت الأذنان موضعًا للاستماع للنصيحة، وصارت الجبهة للسجود للـه، والوجه للحسن والزينة لأنه من تراب الجنة، والأسنان للحلاوة، واليد اليُمنى للبركة والكرم لأنها من تراب الكعبة، أما اليُسرى فللاستنجاء والبطن للجوع، والعورة للشهوة والغش لأنها من تراب بابل، والعظم صارت له الصلابة لأنه أخذ من الجبال، أما القلب وترابه من الفردوس ـ فللإيمان، واللسان للشهادة والتضرع والدعاء.

أما الأسطورة الأكثر إثارة فهي تتحدث عن الخلق من «النور المحمدي» وتقرير مصائر البشر، من خلال نظر أرواحهم لنور الرسول محمد.

فتقول تلك الأسطورة إن اللـه قد خلق شجرة ذات أربعة أغصان سماها «شجرة اليقين»، ثم خلق نور النبي محمد في حجاب من درة بيضاء على هيئة

الطاووس، ووضعه على الشجرة فبقي يُسَبِح سبعين ألف سنة، ثم خلق اللـه مرآة الحياة ووضعها أمام الطاووس، فنظر إليها ورأى جمال هيئته فاستحى من اللـه، فعرق وقطر من عرقه ست قطرات، فخلق اللـه من الأولى أبا بكر الصديق، ومن الثانية عمر بن الخطاب، ومن الثالثة عثمان بن عفان، ومن الرابعة عليًّا بن أبي طالب، ومن الخامسة الورد، ومن السادسة شجر الأرز.

ثم سجد النور المحمدي خمس مرات بعدد الصلوات المفروضة على أمة محمد..

ونظر اللـه ثانية لنور محمد فعرق حياءً من اللـه، فخلق اللـه من عرق أنفه الملائكة، ومن عرق وجهه العرش والكرسي واللوح المحفوظ والقلم والشمس والقمر والكواكب، ومن عرق صدره الأنبياء والرسل والشهداء والصالحين، ومن عرق ظهره البيت المعمور والكعبة وبيت المقدس وأماكن المساجد، ومن عرق حاجبيه أمة محمد، ومن عرق أذنيه اليهود والمسيحيين والمجوس وغير المسلمين، ومن عرق قدميه خلق الأرض بما فيها.. ثم سبّح النور المحمدي سبعين ألف سنة.

بعد ذلك خلق اللـه قنديلاً من العقيق الأحمر الشفاف، وخلق النبي محمد على هيئته البشرية ووضعه في القنديل قائمًا على هيئة الصلاة، فطافت أرواح الأنبياء حول القنديل تسبّح مقدار مئة ألف سنة.. وأخيرا أمر اللـه أرواح البشر أن تنظر لجسد النبي محمد لتتقرر مصائر أصحابها.

فمن رأى رأسه صار سلطانًا، ومن رأى الجبهة صار أميرًا عادلاً، ومن رأى العينين صار حافظًا لكلام اللـه، ومن رأى حاجبيه صار نقاشًا، ومن رأى أذنيه صار مستمعًا، ومن رأى خديه صار محسنًا وعاقلاً، ومن رأى شفتيه صار وزيرًا، ومن رأى أنفه صار طبيبًا أو حكيمًا أو عطارًا، ومن رأى فمه صار من الصائمين، ومن رأى أسنانه صار حسن الوجه، ومن رأى لسانه صار رسولاً بين الملوك، ومن رأى حَلقه صار واعظًا ومؤذنًا، ومن رأى لحيته صار مجاهدًا في سبيل اللـه، ومن رأى عنقه صار تاجرًا، ومن رأى عضديه صار سيافًا أو فارسًا، ومن رأى العضد الأيمن وحده صار مشتغلاً بالحجامة، ومن رأى الأيسر صار جاهلاً، ومن رأى الكف اليمنى صار كريمًا وسخيًا، ومن رأى اليسرى صار بخيلاً، ومن رأى أصابع اليد اليمنى صار خياطًا، ومن رأى أصابع اليد اليسرى صار حدادًا، ومن رأى الصدر صار عالمًا ومجتهدًا، ومن رأى الظهر صار شريرًا، ومن رأى الجنبين صار غازيًا، ومن رأى البطن صار زاهدًا، ومن رأى الركبتين صار راكعًا ساجدًا، ومن رأى الرجلين صار صيادًا، ومن رأى الظل صار مغنيًا.

ومن لم ير شيئًا صار غير مسلم، أما من لم ينظر فقد صار مدعيًا للألوهية.

هذه الرواية ـ كسابقاتها ـ يبدو واضحًا ازدحامها بالرمزيات، سواء فيما يخص خلق خلفاء الرسول محمد من نوره، باعتبار أن فترة خلافتهم كانت امتدادًا لفترة نبوته، أو ما يخص ارتباط كل عضو من جسد الإنسان بمهنة أو صفة معينة بشكل أو بآخر..

كذلك يبدو واضحًا انتماؤها للمدرسة الصوفية، بما فيها من ذكر للأنوار المحمدية وشجرة اليقين والعرق من هيبة اللـه والانقطاع للتسبيح لآلاف السنين، ووحدة ثم انفصال الأرواح وطوافها، وما إلى ذلك من الأمور المرتبطة بلغة الأدبيات الصوفية المليئة بهذه الرمزيات والإشارات.

وأخيرا يلاحظ القارئ مخالفتها تمامًا للنصوص الدينية الإسلامية، التي تقول بشكل صريح إن الخلق كان من تراب وطين وليس من نور، وإن الكون قد خُلِقَ بترتيب معين وليس بالتزامن.. وهذه المخالفة للنصوص المقدسة من قرآن أو أحاديث مصنفة باعتبارها صحيحة، هي من الأمور التي تميز الأسطورة الإسلامية كما رأينا وسنرى.

إذن فقد خلق اللـه الإنسان، وقدّر أن مصيره سيكون مرتبطًا بالأرض وليس بالجنة التي عاش فيها آدم مع زوجه حواء حينًا، ثم أُخرِجا منها لمخالفتهما أمر اللـه وأكلهما من الشجرة المحرمة.. ومن قبل ذلك كان اللـه قد قرر أنه «جاعلٌ في الأرض خليفة»..

ولكن، هل كان الإنسان أول خليفة في الأرض؟ أم أن خلقًا ما قد سبقوه إلى ذلك؟

هذا هو موضوع الفصل التالي..

III

عن الجِن والبِن والجِن الذين سكنوا الأرض قبل الإنسان

لم يخل تراث مجتمع أو قوم أو حضارة من فكرة البحث عن إجابة لسؤال «من سبقنا إلى هذا العالم؟»، وغالبًا كان هذا السؤال مدخلاً لأساطير الآلهة القديمة أو أرواح الأجداد.. ولكن إجابته في القَصَص الإسلامي قد تشكلت في قالب الثقافة الإسلامية وتفسير نصوص القرآن.

ففي القرآن، عندما أراد اللـه أن يخلق كائن الإنسان قال للملائكة «إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة» فسألوه «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نُسَبِحُ بحمدك ونُقَدِسُ لك».

في أبرز تفاسير القرآن، كتفاسير ابن كثير والطبري والقرطبي، نقرأ أكثر من تفسير لهذا السؤال ـ أعني سؤال الملائكة للـه حول المخلوق الجديد ـ فثمة رأي يقول إنهم قد استنتجوا من كونه «خليفة» أنه سيقع بين البشر فساد وحروب، ما يستدعي تدخُل هذا الخليفة للفصل بينهم، ورأي غيره يقول إن اللـه قد أطلع الملائكة على صفات البشر فاستنتجوا منها نزوع بعضهم للشر والفساد، ورأي آخر ـ هو ما يعنينا هنا ـ يقول إن الملائكة كانوا يتساءلون لأنهم قد شهدوا خبرة سابقة لكائنات سكنت الأرض فأفسدت وسفكت الدماء.. فمن هي هذه الكائنات؟

في أكثر من كتاب من كتب التراث الإسلامي، كـ«البداية والنهاية» لابن كثير أو «تاريخ الأمم والملوك» للطبري أو «الحيوان» للجاحظ أو «حياة الحيوان الكبرى» للدميري أو «عرائس المجالس» للثعلبي و«أخبار الزمان» للمسعودي، وغيرها، نقرأ اسمي «الحِن والبِن» باعتبارهما أول من سكن الأرض، ومن ورائهما «الجِن»، قبل أن يُخلَق الإنسان أصلاً!

تقول القصة ـ المُجَمَّعة من أكثر من كتاب مما سبق ذكره ـ إن اللـه قد خلق أمّتين هما الجِن والبِن، وأسكنهما في الأرض، فأفسدتا في الأرض وسفكتا الدماء، فسلّط اللـه عليهما الجن فقتلوهما وطردوهما لجزر البحر، وسكن الجن الأرض.

ثم بعد ذلك تكرر ما جرى، فانقسم الجن بين مؤمنين وكافرين، فاعتزل المؤمنون منهم الكافرين، وكان المؤمنون يطيرون للسماء صعودًا ويلتقون الملائكة ويحدّثونهم، ثم طغا الكافرون وتحاربوا، فأرسل اللـه جيشًا من الملائكة قتلهم وطردهم للجزر وقمم الجبال والأماكن النائية.

ويضيف المسعودي في كتابه «أخبار الزمان» أمما خلقها اللـه قبل الإنسان تعيش في الفضاء، خُلِقَت من العناصر الأربعة (التراب والماء والنار والريح) هي 28 أمة لأقوامها أشكال مختلفة، فمنهم قوم طوال خفاف لونهم أزرق لهم أجنحة وكلامهم الفرقعة، وقوم لهم أجنحة كثيرة كلامهم كصوت الطيور، وقوم بأجسام الأسود ورؤوس الطيور، وقوم لهم وجوه البشر وأجساد السلاحف، وهكذا... هذه الأمم التقت وتزاوجت فأنتجت 120 أمة!

ويروي المسعودي قصة ينسبها للـهنود والفُرس واليونان عن أن الجن كانوا 21 قبيلة، ثم بعد 5000 سنة نصبوا على رأسهم ملكًا اسمه «شمائيل بن أرس جن»، ثم تفرقوا تحت خمسة ملوك، وأغار بعضهم على بعض ووقعت بينهم حروب ودماء، فأرسل اللـه جيشًا من الملائكة فحاربهم جميعًا وهزمهم ودمّر سطوتهم.

وفي كتاب «الحيوان» للجاحظ نقرأ عن اختلاف الرأي بين من تناولوا شأن الجِن والبِن والجِن، فيقول بعضهم إنها أجناس مختلفة، ويقول آخرون إن الجن هم الجنس الأساسي وإن الحِن هم الفئة الضعيفة من الجِن، بل ويذهب البعض إلى أن الحِن قد مُسِخوا كلابًا وأن منهم الآن كل كلب أبقع!

ويذهب بعض الرواة والمفسرين إلى أن الجن ليسوا جنسًا بذاتهم، وإنما هم قبيلة من الملائكة ولُقِّبوا بالجن لأنهم كانوا خزنة الجنة.. بينما يفرق آخرون بين عنصري تكوين الملائكة والجن، فالملائكة مخلوقون من نور النار، بينما الجن خُلِقوا من طرف لهب النار، أو ما يصفه القرآن بـ«مارج من نار».

في كل الأحوال لم يكن غريبًا على الفكر الأسطوري الإسلامي أن ينشغل بقضية «من كان هنا قبلنا؟».. فمن الناحيتين العلمية والدينية لا يوجد ما يمنع من افتراض أننا لسنا أول قوم على وجه الأرض، فإن كانت العلوم الجادة، كالتاريخ والأنثروبولوجي وعلوم تفسير النصوص الدينية، لا ترفض الفكرة ـ بل

ومنها ما يحتوي نصوصًا مقدسة لأصحابها أو نظريات علمية رصينة تقر الأمر ـ فما بالنا بالفكر الأسطوري المتسع لكل شيء؟

ودعونا نعترف هنا بخصوبة مخيلة أولئك الذين وقفوا عند تساؤل الملائكة «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» حين افترضوا أن السؤال يعني وقوع تجربة سابقة، فمجرد ذِكر الملائكة لكلمة «الدماء» هو أمر مثير للفضول في التحليل العقلي للنص القرآني، فكيف عرف الملائكة بوجود «الدماء» وارتباطها بفعل «السفك» وارتباط سفك الدماء بـ«يفسد فيها»؟ هذا أمر يقودنا بالفعل لفرضية وجود مخلوقات عاقلة سابقة للإنسان وقع منها الإفساد وسفك الدم، ما خلق لدى الملائكة هذه الخبرة (وهي تبقى واحدة من عدة فرضيات لوجود فرضية أخبار الخالق لهم ببعض تفاصيل حياة المخلوق)، بالتالي فإن ذهاب البعض إلى هذه النتيجة هو أمر منطقي مترتب على تفكير منظم وجاد، أما ما تلاه من تفاصيل وأسماء وتاريخ مفترض لملوك وأمم وحروب فهو ما يمكننا وصفه بـ«اللمسة الأسطورية» في الأمر.. فالأسطورة لا تخلو أحيانا من جانب ناتج عن تفكير منطقي.

بل ولم يقف التساؤل عند «من سكن الأرض قبلنا؟» بل تجاوزه إلى «ما مصيرهم؟» فقرر أنهم قد مُسِخوا إلى حيوانات، ولأن الكلب من الحيوانات المرتبطة في الثقافة الإسلامية بالكائنات الخفية ـ مثله كمثل القطط والحيّات والعقارب مثلاً ـ فقد كان مناسبًا لهذا الفِكر أن تصبح الهيئات الجديدة لأمة الحِن السابقة.. (بالمناسبة، ماذا عن «البِن»؟ لماذا لا يرد أي ذكر لهم سوى اسمهم؟ هل نستنتج من هذا أنهم ـ وفقًا للأسطورة ـ قد فنوا تمامًا، أو أنهم كانوا قد هُزِموا من الحِن الذين هُزِموا بدورهم من الجِن؟).

الواقع أن أسطورة حكم الحن والبن والجن للأرض هي مما لا يمكن أن نمر عليه مر الكرام، في خضم قراءتنا وتحليلنا للأساطير الإسلامية، فهي ليست مجرد رواية خيالية بقدر ما لها من دلالات على أن الفِكر الأسطوري ـ عند المسلمين ـ لم يقف عند تفسير الظاهر من معاني الآيات القرآنية والواضح منها، بل تعداه لتحليل الآية ثم التقاط ما بين سطورها واستخدامه لبناء أسطوري كامل.. كذلك فإن لها دلالة على أن «ما قبل التاريخ» (وهو مصطلح يعني ما قبل التاريخ المكتوب وليس ما قبل وقوع التاريخ فالتاريخ ـ بطبيعة الحال ـ قد سبق اختراع الكتابة) هو مما شغل عقلية المسلمين إلى حد إنتاج هذه الرواية الأسطورية الثرية عنه.

فلننتقل إذن من هذا الشأن لشأن لا يقل أهمية، فكما أن للكائن البشري قصة خلقه، ولأسلافه قصة بدايتهم ونهايتهم، فإن الصورة لا تكتمل إلا بوجود عدو أبدي لهذا الكائن، ليمثل عنصر التحدي في ملحمته الطويلة، هذا العدو هو إبليس وأعوانه من الشياطين والكائنات الشريرة.. فلننظر ما شأنهم.

IV

إبــليس وجنـوده

لا تخلو عقيدة من فكرة «الشيطان/ إله الشر/ الروح الشرير... إلخ»، ستجده في المصرية القديمة باسم «سِت» وفي الزرادشتية الفارسية باسم «أهريمان» وفي المسيحية باسم «لوسيفر»..

وفي الإسلام باسم «إبليس».

النص القرآني يقول بشكل صريح إن إبليس ـ كما يرد اسمه في القرآن ـ كان من الجِن وأُمِرَ مع الملائكة أن يسجد لآدم، فرفض ذلك فطُرِدَ من السماوات، ومن هنا بدأت عداوته الأبدية لآدم وبنيه إلى يوم القيامة، وتوعدهم أن يقعد لهم بالوسوسة والفتن حتى يُضلهم.

أما كتب مثل «عرائس المجالس» للثعلبي و«أخبار الزمان» للمسعودي و«عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» للقزويني، فتروي قصة كاملة لأبليس، تذكر فيها أكثر من بداية له، كان فيها يحمل اسم «عزازيل» قبل أن يُطرَد من رحمة اللـه.

فثمة رواية تقول إنه كان من جنس الجن الذين سكنوا الأرض، فلما كثر بينهم الفساد سخط عليهم واعتزلهم وصعد إلى السماء ليعيش بين الملائكة، وأخلص في عبادته حتى كلفه اللـه بأن يقود جيش الملائكة لطرد الجن من الأرض.

ورواية ثانية تقول إنه كان يعيش على الأرض بين الجن، ثم أسره بعض جند الملائكة عندما بعثهم اللـه لمحاربة الجن، وصعدوا به إلى السماء صغيرًا، فكبر بينهم وأخلص في عبادة اللـه، حتى جعله خازنًا للدنيا وملكًا على ما بين السماوات والأرض.

أما الرواية الثالثة فتقول إن الجن كانوا قبيلة من الملائكة وإن «عزازيل/ إبليس» كان منهم، وكان اسمهم الجن لأنهم كانوا خزنة الجنة، وترقى عزازيل حتى صار من أعلى الملائكة مرتبة.

بل وجعله البعض «أبا الجن» كما أن آدم هو أبو البشر، وهو ما يتعارض مع وصفه في النص القرآني بأنه «مِن الجن».

في كل الأحوال، فإن الروايات تتفق فيما بعد ذلك، فتقول إن عزازيل حين عظم أمره بين الملائكة وصار ملكًا على الدنيا أصابه الكِبْر، فلما خلق اللـه آدم وضعه ـ قبل أن ينفخ فيه الروح ـ في طريق مرور عزازيل، فكان هذا الأخير يستغرب هيئته ويسأل الملائكة «هل لو سلطه اللـه عليكم أتطيعون اللـه؟» فيقولون «نعم»، فيُسِرّ في نفسه أن «لو سُلِطَ عليّ لأعصينه ولو سُلِطت عليه لأهلكنه».

وتأتي لحظة المواجهة ويؤمر الملائكة بالسجود لآدم حين تنفخ فيه الروح، فيخضعون للأمر الإلهي بينما يرفض عزازيل ويتمرد ويعلن أنه خير من ذلك المخلوق من طين، فيُطرَد من رحمة اللـه، ويهبط إلى الأرض وقد فقد اسمه «عزازيل» وصار اسمه «إبليس» لأنه ـ على حد قول المفسرين ـ قد «أبلَس من رحمة اللـه»، و«أبلس» في اللغة تعني «يئس وانقطعت حجته».

هنا يقرر إبليس الانتقام، فيتسلل إلى السماء ويحوم حول الجنة التي أسكنها اللـه آدم وزوجه، ويحاول دخولها لكنه يُزجَر ويُطرَد من خزنتها، فيقف على بابها مئات السنين يتعبد حتى يشتهر أمره بأنه من الملائكة «الكروبيين/ المقربين» وأنه من أعبدهم وأتقاهم (وهو أمر غير منطقي حتى بالنسبة لأسطورة، فالمفترض أن الملائكة يعرفون من هو إبليس وقد شهدوا عصيانه وطرده) وأخيرا يجد الطاووس السماوي ـ وهو طير مكرم يعيش في الجنة ـ فيتقرب إليه ويمدح جماله ثم يحاول إقناعه بإدخاله إلى الجنة، فيرفض الطاووس بحجة أن المَلَك «رضوان» خازن الجنة واقف يمنع أي أحد من دخولها إلا بأمر اللـه.. ثم يقترح الطاووس على إبليس أن يستعين بالحيّة على ذلك، فهي أوسع حيلة منه.

ويقابل إبليس الحية، وكانت آنذاك ـ حسب وصف الراوي ـ عظيمة الحجم كالجِمال، ذات قوائم ولها ذيل ملون وهيئة جميلة (ملحوظة مني: حاول أن تتخيل حية ملونة بضخامة الجمل ولها قوائم، وستكتشف أننا نتحدث عن كائن التنين الأسطوري الذي يعتبر في المسيحية رمزًا من رموز الشيطان.. ابحث عن اللوحة الشهيرة لمارجرجس وهو يقاتل التنين).

اقترب إبليس من الحية وطلب منها أن تدخله الجنة التي تعيش فيها، فسألته «كيف؟» فأجابها «أتحول ريحًا وأدخل إلى فمك فتحمليننى بين أنيابك»

(ولماذا لم يتحول من البداية إلى ريح ويدخل الجنة؟) ففعلت ذلك وأنزلته داخل الجنة.

فانتظر متربصًا قدوم آدم وحواء، فلما رآهما تظاهر بالبكاء فتأثرا لحاله وسألاه عما به، فقال إنه يبكيهما لعلمه أنهما يموتان يوما ما رغم ما هما فيه من نعيم، ثم يخبرهما عن الشجرة المحرمة ويغريهما بالتناول منها... وباقي القصة معروف.

تقول بقية الرواية إن اللـه قد أهبَط آدم وحواء وإبليس والطاووس والحية إلى الأرض، وعاقب الحية بأن حرمها من قوائمها، وحكم عليها أن تزحف على بطنها وأن تصبح عدوة للبشر وأن تبدل جلدها كل سنة.

ولنكمل قصة إبليس، فإنه لما أُنزِل إلى الأرض حاول أن يختلط بالجن ـ الذين كانوا قد طُرِدوا إلى الجزر والخرائب والجبال ـ فنفروا من هيئته الجديدة ـ وكان قد عوقب بتبديلها لهيئة بشعة ـ ورفضوه إلا بعضهم من العصاة، فأصبحوا من جنوده وانضموا إلى زمرة الشياطين.

ويصف الراوي هيئة إبليس حين هبط، فيصف عمامته ونعله وإزاره، بل ويمنحه اسمًا عربيًا هو «الحارث» وكُنية هي «أبو مُرّة».

وألقى اللـه على إبليس شهوة مزدوجة، شهوة كل من النساء والرجال، وكان قد جعل له فرجًا في أحد فخذيه وعضوًا ذكريًا في الآخر، فنكح نفسه فباض بيضات خرج منها نسله.. وقيل بل ألقى اللـه عليه الغضب، فطارت شظية نار منه فخلق منها اللـه زوجته.. وقيل كذلك إنه قد تزوج الحية التي ساعدته في دخول الجنة.

ونسله ليسوا من الشياطين فحسب، بل إن منهم المسوخ والغيلان التي تقف للإنسان بالخلاء فتستدرجه وتعبث به فتقتله أو تصيبه بالجنون.

ويذكر القزويني بعض هذه الشياطين في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، فمنها «الغول» وهو ـ على حد قوله ـ «الشيطان إذا حاول استراق السمع من السماء فأصابه شهاب فهوى إلى الأرض يتحول إلى غول».

ومنها «السعلاة» وهي إذا ظفرت بالإنسان في الخلاء لعبت به كما تلعب القطط بفرائسها.. ومنها «الغدار» وله قضيب كقرن الثور يغرسه في فريسته، فيقال عمن أصيب به «أمنكوح أم مذعور؟» فإن كان منكوحًا فهو هالك ولو كان مذعورًا عولج..

ومنها «الدلهاب» وهو راكب على نعامة يتعرض للمسافرين بالمراكب ويخطفهم..

ومنها شياطين موكل كل منهم بمهمة، فواحد مختص بسفك الدماء، والثاني للنواح وضرب الوجوه عند المصائب، وثالث للمعازف ومجالس الخمر، ورابع للأسواق والتشاجر فيها، وخامس للوسوسة للأنبياء... وهكذا.

وكل هؤلاء يحكمهم إبليس من فوق عرشه المنصوب على الماء.

* * *

هذه الرواية عن الشيطان يبدو فيها التأثر بمزيج من الخرافات الشعبية القديمة، والقصة التوراتية للشيطان.

فأما عن الخرافات الشعبية فمنها نسب الغول لإبليس، والغول هو كائن أسطوري كان العرب قبل الإسلام يعتقدون بوجوده، ويتناقلون أخبار من التقوه في الطريق بل وحاربوه وقتلوه، وعلى غراره بقية المسوخ المذكورة، وهي مما نرى لها نماذج مشابهة في ثقافات عدة، كعرائس البحر التي تضل البحارة في الثقافة الإغريقية، والنداهة في الثقافة الريفية المصرية... وغيرها.

وأما عن الجانب التوراتي من القصة فهو ما يُسَمَى «الملاك الساقط» وهم مجموعة من الملائكة تمردوا على اللـه، فأسقطهم من السماء، فمنهم الشياطين، وكان منهم «عزازيل»، فمزج مؤلف الأسطورة بين هذه القصة وبين إبليس، بحيث يكون عزازيل هو البداية ثم يتحول بعد معصيته إلى إبليس.. (في هذا الموضوع أنصح بقراءة كتاب «القصص القرآني ومتوازياته التوراتية» للباحث السوري فراس السواح، فهو يتحدث عنه باستفاضة شديدة).

كذلك يبدو واضحًا التوظيف الرمزي لكلا من الطاووس والحيّة.. فالطاووس خدعه إبليس بأن مدح هيئته، أي قد أُتِي من غروره بنفسه، وهي صفة متهم بها الطاووس دومًا في الموروثات الشعبية، والفخر والغرور هما الخطيئة التي أسقطت إبليس، إذن فهي هنا قد أسقطته ولكنه يستخدمها لإغواء الآخرين.. وهي إشارة تدخل في جانب «المغزى الأخلاقي للقصة».

بل ونلاحظ جانبًا «مهينًا» للشيطان في الرواية وهو أنه «ينكح نفسه»، ففي الثقافة العربية يُستَخدَم فعل النكاح كسُبة أو شتيمة ـ وما زال حتى الآن ـ فأضاف الراوي فكرة أن إبليس ينكح نفسه، بل ويبيض، على سبيل الإهانة.

والاهتمام بزي إبليس وهيئته في هبوطه للأرض ربما هو ترجمة لمحاولة تفسير بعض المنهي عنه من الأزياء أو الهيئات، كأن يقال «لا ترتد هذا أو ذاك ولا تربط عمامتك هكذا فقد كان إبليس يفعل مثله... إلخ» وهي من الأمور الشائعة في ثقافات المجتمعات المسلمة.

أما الحية ـ والثعابين بشكل عام ـ فهي من الكائنات التي ارتبطت في الوجدان الجمعي الشعبي بالشياطين والجن، ففي كتب التراث نقرأ أكثر من قصة من هذا القبيل، فعلى سبيل المثال نقرأ عن الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي وجد شجاعًا ـ ذكر الحية ـ ميتا فكفنه في جزء من ردائه ودفنه، فسمع هاتفًا ينادي أن هذا الشجاع من الجن الذين التقوا الرسول محمد وآمنوا به، وأن الرسول قد وعده بأن يدفنه خير أهل الأرض.. ونقرأ عن الحية التي وجدها صحابي بفراشه فقتلها فسقط ميتًا لأنها كانت من الجن فانتقموا لها فقتلوه.. ونقرأ عن الحيّات السوداء التي تحارب حيّات بيضاء، ثم يتضح أن الأولى من الجن الكافر والأخرى من الجن المؤمن.. وبشكل عام فقد ربط الفكر الأسطوري الإسلامي بين الشياطين من ناحية والكائنات المكروهة «إسلاميًا»، كالحية والكلب الأسود، من ناحية أخرى.

هذا فضلاً عمّا سبق ذكره من أن وصف الحية في الجنة قبل معصيتها يشبه وصف كائن «التنين» في الثقافات الشرقية القديمة، وهو في الثقافة المسيحية رمز للشيطان، بل أحيانا يكون هو الشيطان، فربما يكون هذا تأثيرا مسيحيًا في صياغة الأسطورة الإسلامية.

في كل الأحوال فإن الأسطورة الإسلامية قد صاغت هيئة «العدو الأبدي» للإنسان، بطل الملحمة، بشكل بارع ممتلئ بالتفاصيل الشكلية والمعنوية، وصنعت له تاريخًا وتطورًا لشخصيته، وتحولات درامية عميقة تستحق أن تُدرَس باستفاضة، وتنم عن عقلية تجيد إسقاط نفسيات وأحوال البشر على ما تبتكر من أشخاص وأحداث وتفاصيل.

*   *   *

V
هل النبي إدريس هو أوزيريس المصري؟

في القرآن الكريم نقرأ «واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقًا نبيًا. ورفعناه مكانًا عليًّا».

من يطالع تفسير المفسر والمؤرخ الطبري للآية، يقرأ أن إدريس كان نبيًا يُرفَع من أعماله الخيّرة ما يعادل أعمال البشر، وكان له صديق من الملائكة فسأله إدريس أن يسأل مَلَك الموت أن يؤخر قبض روحه ليزيد من الأعمال الطيبة، فصعد به المَلَك إلى السماء وقابل مَلَك الموت وسأله عن ذلك، فأجابه أنه قد أُرسِلَ بالفعل لقبض روحه، فنظر الملك صديق إدريس إلى صديقه الذي رفعه تحت جناحه، فوجده قد مات.

ويعلّق المفسر والمؤرخ إسماعيل بن كثير على هذا التفسير، بأنه من الإسرائيليات، وأنه منقول عن رواية لكعب الأحبار.

والمؤرخ والمفسر جلال الدين السيوطي يقول في كتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» ـ في سياق حديث عمن كان بمصر من الحكماءـ إن إدريس كان «مثلثًا»، أو كما يصفه أتباع الفكر الهرمسي بـ«مثلث العظمة»، وهذا لأنه جمع بين النبوة والحكمة والمُلك، وهو أول من حوّل معدن الرصاص إلى ذهب.

ويضيف مؤرخ العصر المملوكي ابن إياس الحنفي، أن إدريس هو الحكيم هرمس الذي كان من تلاميذه فيثاغورس، وترجع له ولتلاميذه علوم الكيمياء والنجوم والسحر والروحانيات والطلاسم وأسرار الطبيعة.

ويذكر الطبري في كتابه «تاريخ الأمم والملوك» أن إدريس هو أخنوخ النبي، وأنه أول نبي من وَلَد آدم، وأول من خَط بالقلم، ويضيف ـ قائلاً إن هذا مما قاله أهل التوراة ـ أن إدريس/أخنوخ قد عاصر آدم الذي كان عمره عند مولده

622 سنة، وأن اللـه قد أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأن إدريس هو أول من جاهد في سبيل اللـه وخاط الثياب، ودعا الناس إلى طاعة اللـه وأن يهجروا أبناء قابيل الأشرار فلم يطيعوه.

وعودة لابن كثير الذي يؤكد في كتابه «البداية والنهاية» أن قصة طلب إدريس من ملك الموت تأجيل قبضه هي من الإسرائيليات، ويضيف نقلاً عن بعض رواة الأحاديث أن إدريس قد رُفِعَ إلى السماء، وفي رواية أخرى عن الحسن البصري إلى الجنة، وهو معنى الآية «ورفعناه مكانًا عليًا».

هذا عن إدريس في كتابات المفسرين والمؤرخين.. فماذا عنه في الأسطورة الإسلامية؟

في كتابه «عرائس المجالس» يسرد الثعلبي رواية على شيء من الاختلاف عمّا تقدم، فيقول إن إدريس هو أخنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، وأنه حمل اسم إدريس لكثرة درسه كتب وصحف آدم وشيث، ويضيف أن إدريس كان أول من خط بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط ومارس علم النجوم والحساب، وبعثه اللـه لهداية أبناء قابيل بن آدم.

ويذكر ـ ناسبًا قوله لعبد اللـه بن عباس ـ في قصة رفع إدريس للسماء، أنه أصابه يومًا حر الشمس، فسأل اللـه أن يخفف عن المَلَك الذي يدور بها حرها، فلما استجاب اللـه لدعائه ذكر له المَلَك جميل الدعاء له، وصار له صديقًا يجالسه، فسأله إدريس يومًا أن يطلب من مَلَك الموت أن يؤخر أجله ليزيد من العبادة وشكر اللـه، فحمله الملك على جناحه وصعد به للسماء ليقابل مَلَك الموت الذي كان رده «ليس لي أن أؤخر أجله ولكني أخبره متى يكون ذلك» ثم نظر ملك الموت في الأمر فرأى أن إدريس لم يبق من أجله شيء، فنظر المَلَك الصديق إلى إدريس على جناحه فوجده قد مات.

وينقل الثعلبي عن الراوي وهب بن منبه رواية أخرى، فيقول إن إدريس كان يُرفَع يوميًا من عمله الصالح ما يعادل أعمال أهل الأرض، فعجب من ذلك الملائكة واشتاق مَلَك الموت لزيارة ذلك الرجل الذي يبلغ عمله هذا الحد، فاستأذن اللـه في ذلك فأذن له.

فزاره في هيئة آدمي فاستضافه إدريس وقدم له الطعام فلم يأكل، فاستغرب إدريس ذلك، وبعد ثلاثة أيام سأله عن شأنه فعرّفه أنه ملك الموت، فطلب منه إدريس ثلاثة أمور: أن يقبض روحه ثم يردها، وعلل ذلك بأنه يريد أن يذوق الموت ليستعد له، وأن يدخله النار ينظر إليها، وعللـه برغبته في الموعظة، وأن يدخله الجنة يزورها، وعلل ذلك بأنه يريد أن يشتاق لها فيحسن العمل، فأذن اللـه لملك الموت بأن يلبي طلباته ففعل، فلما أماته ثم أعاده وأدخله النار ثم أخرجه منها وأدخله الجنة رفض أن يغادرها، وقال للمَلَك «لا

أخرج من الجنة»، فأرسل اللـه مَلكًا آخر حكمًا بينهما، فقال له إدريس «قد قال اللـه إن كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته، وقال عن النار ما منكم إلا واردها وقد وردتها، وقال عمن يدخل الجنة وما هم منها بمخرجين وقد دخلتها فلست أُخرَج منها» فقضى اللـه بما قال إدريس، فهو مستمر بين تَنَعُم في الجنة وعبادة في السماء الرابعة.

وتنتهي بذلك رواية الثعلبي نقلاً عن ابن منبه.

* * *

المُطالع لـ«سِفر أخنوخ»، وهو من الأسفار المصنفة مسيحيًا باعتبارها «أسفارًا غير قانونية» أي غير معترف بها، يقرأ أن أخنوخ ـ الاسم التوراتي لإدريس ـ قد صعدت به الملائكة إلى السماء، وطافت به بين السماوات السبع، ثم أزارته الجنة والنار، وأخيرا استقرت به أمام عرش الرب الذي أملاه الحكمة والعلم وأمره بكتابتها وتقديمها للناس، وبعد أن هبط أخنوخ وأدى مهمته أرسل اللـه الملائكة لترفعه إلى السماء، بعد أن وعظ البشر وأوصاهم وأوصى بخلافته لبعض بنيه.

من السهل إذن إدراك أن من رووا قصة إدريس على النحو الذي قدمه الثعلبي في «عرائس المجالس» قد تأثروا بسفر أخنوخ سالف الذكر، وأضافت له قريحتهم قصة خداعه لملك الموت ليمكث في الجنة.

وتطابق روايتهم ذِكر التوراة أن تلك الوقائع قد جرت له وقد بلغ من العمر 365 سنة.

وعودة لكتابات المؤرخين المسلمين عن إدريس، ففي تواريخ كل من الطبري وابن كثير وابن الأثير والمسعودي، فإن إدريس هو أخنوخ من نسل شيث بن آدم، وتسميه الصابئة «هرمس» ـ ويفسرها المسعودي بـ«عطارد» ـ وهو على حد قولهم أول من خط بالقلم وعلّم الزراعة وتخطيط المدن ولبس المخيط والسكن في البيوت، ويضيف بعضهم القول بأنه أول من ركب الخيل وجاهد في سبيل اللـه، ويُجمعون على أنه قد حذّر قومه من مخالطة نَسل قابيل، ولكن قومه عصوه وخالطوهم.

وتنتهي رواية كل منهم عن إدريس أنه قد وُلِدَ له ابنه «متوشالح»، وعاش نحو 300 سنة بعد ميلاد ابنه، ثُمَ رفعه اللـه إلى السماء بعد أن استخلف متوشالح على قومه.

وفي كتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» يذكر السيوطي اسم إدريس بين من دخلوا مصر من الأنبياء، ويذكر رواية عنه أن أحد الملوك

قد أراده بسوء ولكن اللـه عصمه، ثم دفع له أبوه العلوم المتوارثة عن جده، فطاف بالبلاد وبنى عشرات المدن في مختلف الأنحاء أصغرها «الرها» ـ بالأناضول حاليًا ـ ثم عاد إلى مصر وحكمها، وزاد في مسار نهر النيل وقاس عمقه وسرعة جريانه، وكان أول من خطط المدن ووضع قواعد للزراعة وعلّم الناس الفلك والهندسة، ويربطه بالصابئة ويقول إن بعضهم يدّعي أن أحد أهرامات مصر قبره، والآخر قبر جده شيث بن آدم.

وينقل المؤرخ ابن تغري بردي في كتابه «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» رواية عن بناء إدريس للأهرام، فيقول إنه قد استدل من فهمه لحركة الكواكب على قرب الطوفان، فبنى الأهرام وأودعها العلوم التي خشي من ضياعها. (جدير بالذكر أن في سفر أخنوخ يخبر الرب أخنوخ أنه قرر أن يرسل الطوفان على البشر).

أما أستاذه المقريزي فيذكر في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ـ المعروف باسم الخطط المقريزية ـ أن إدريس مَلَك مصر وكان أول من بنى بها بيوتًا للعبادة، وأنه أول من علّم الناس الطب.

ويذكره ابن إياس الحنفي بين من دخلوا مصر من الأنبياء ومن حكموها من الملوك، في كتابه «بدائع الزهور في وقائع الدهور».

وتقول بعض الروايات ـ التي ينقلها لنا ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» عن اسم «بابليون» ـ إن إدريس كان يعيش في أرض بابل، لكنه تعرض لبعض المضايقات فدعا اللـه أن يرسله إلى أرض مشابهة فأرسله إلى مصر، فلما رأى النيل قال «بابليون» (ومن هنا ـ حسب الرواية ـ تحمل مصر هذا الاسم ضمن أسمائها) وهي تعني «مثل نهر بابل»، وصار ملكه بمصر.

وثمة سؤال يطرح نفسه بناء على ما سبق: هل إدريس/أخنوخ هو أوزيريس المصري؟

* * *

القارئ في الأساطير المصرية القديمة، يجد أن المصريين قدموا أوزيريس على أنه أول من علم الناس الفلك والطب والكيمياء وبناء المدن ولبس المخيط ومختلف فنون الحياة.

وثمة كتاب وضعه المؤرخ المصري القديم مانيتون ـ صاحب تقسيم الأسر الحاكمة إلى 30 أسرة ـ هذا الكتاب هو «الجبتانا»، وفيه قصة الخلق المصرية وما بعدها من أحداث حتى بدء الملك مينا نارمر في مهمة توحيد القطرين، هذا الكتاب يتضمن ذكر أن أوزيريس كان يصعد من حين لآخر إلى السماء لمقابلة

الآلهة، ليتعلم منهم الحكمة والعلوم والمعارف الحياتية المختلفة ثم يعود للأرض لينقل تلك العلوم للبشر..

وكما انتهى الوجود الأرضي لإدريس بالرفع إلى السماء، تنتهي قصة أوزيريس بأن يقضي الآلهة بصعوده إلى السماء لينضم إلى «تاسوع الآلهة» (هذا بعد أن ذاق الموت على يد أخيه الشرير ست ثم بُعِثَ حيًا.. لاحظ التشابه مع رواية الثعلبي عن إدريس وموته ثم بعثه).

يثور هنا التساؤل: هل تأثر كاتب سفر أخنوخ بقصة أوزيريس ثم تأثر بعه بعد قرون رواة قصة النبي إدريس؟ أم هل تأثر المصريون بشخصية إدريس النبي فصاغوا منها أسطورة أوزيريس ثم التقطها كتاب سفر أخنوخ ورواة سيرة الحكيم هرمس وأورثوها لرواة النسخة «الإسلامية» من قصة إدريس؟ (وأعني بهم رواة القصة الأسطورية وليست تلك التي في حدود تفسير القرآن).

إنها ـ بحق ـ تساؤلات تدير الرأس، ولكنها جديرة بالبحث والتمحيص والاستقصاء، لأنها مما يؤكد مدى تداخل الموروثات الأسطورية/الدينية للشعوب على اختلاف حضاراتها ولغاتها ومعتقداتها.

VI
هاروت وماروت..
معلما السِحر في بابل

في القرآن الكريم ذِكر لاسمين هما «هاروت وماروت» وبلد ارتبط بهما هو «بابل».

فأما بابل فهي حاضرة حضارة الكلدانيين ـ قوم النبي إبراهيم ـ في العراق القديم، ومن أشهر المدن التاريخية في الشرق.

أما هاروت وماروت فهما شخصان دار حولهما الجدل بين مفسري موضع ذكرهما من آيات القرآن: «وما أُنزِلَ على المَلَكَين ببابل هاروت وماروت»، ففي تفسيري كل من الطبري وابن كثير، نجدهما ينقلان جدل المفسرين حول المقصود من الآية، هل هو «الذي أنزل على الملكين هاروت وماروت ببابل» أو هو «ما أنزل من شيء على الملكين ببابل»، ثم يبدأ سياق جديد بذِكر رجلين اسمهما هاروت وماروت؟ هذا التفسير يقول إن بعض اليهود قد ادّعوا أن الملكين جبريل وميكائيل قد نزل عليهما تعليم السحر من السماء وهما بأرض بابل، فينفي القرآن ذلك قائلاً «ما أُنزِل» أي «ما أنزل اللـه عليهما شيئًا» ثم ينسب تعليم السحر لرجلين هاروت وماروت.

ويقول تفسير غيره إن هاروت وماروت ملكان كانا يتكلمان بلغة الملائكة، فكان البشر يستخدمون هذه اللغة لممارسة السحر.. ويضيف تفسير آخر أن السحر كان من العلوم التي أنزلها اللـه ليعلم الإنسان الخير والشر، لكي يسعى للخير ويتقي الشر، فعصا البعض ربهم ومارسوا السحر، وكانوا يتعلمونه من الملكين هاروت وماروت بأرض بابل، وكانا قد عاهدا اللـه أنهما ينذران الراغب في تعلم السحر بـ«إنما نحن فتنة فلا تكفر» قبل أن يعلماه إياه.

ولكن نفس التفسيرات تحمل بينها القصة الشائعة عن هاروت وماروت، وهي أن الملائكة قد أبدوا للـه استغرابهم من كم الذنوب التي يقترفها البشر، فقال اللـه لهم إنهم لو رُكِبَت بهم شهوات البشر لارتكبوها، فاختاروا منهما هاروت وماروت لينزلا إلى الأرض في هيئة بشرية، وقال لهما اللـه إنهما ينجوان من الاختبار لو التزما عدم السجود لغيره أو الوقوع في الزنا أو شرب الخمر أو القتل، فتعرضا لفتنة امرأة اسمها «الزهرة» فارتكبا كل تلك الذنوب، فخُيِرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينتهي.

هذا ما اجتهد فيه المفسرون لكشف ما قد يغمض من معنى الآية، ولكن الرواة ـ كالعادة ـ تجاوزوا حدود الاجتهاد في التفسير، وضوابطه الملزمة لمن يمارسه، ورووا قصة كاملة بتفاصيلها عن هاروت وماروت.

تقول القصة إن الملائكة عندما رأوا ما يصعد للسماء من شرور البشر وذنوبهم، عايروا البشر وقالوا للـه «هؤلاء هم الذين فضلتهم على خلقك وجعلتهم خلائف في الأرض؟»، فقال لهم اللـه «لو ركبتم ما فيهم من شهوات لأذنبتم مثلهم» فكان رد الملائكة: «سبحانكِ ما لنا أن نعصيك»، فقال لهم اللـه أن يختاروا منهم ثلاثة ينزلون للأرض وتُرَكَب بهم الشهوات البشرية ليختبروا ذلك، فاختاروا أعبد ثلاثة منهم، وهم «عزا» و«عزابيا» و«عزرائيل»، فنزلوا للأرض ـ وكان هذا في عهد النبي إدريس ـ وجُعِلَت فيهم الشهوات، فلما أحس عزرائيل بخطر الشهوة سأل اللـه أن يعفيه من الاختبار، فأعفاه اللـه فسجد عزرائيل له أربعين سنة ثم قام، ومن يومها لا يُرَى إلا مطرقًا برأسه حياء من اللـه.

وأما عزا وعزابيا فقد استقرا بمدينة بابل وصارا قاضيين بها، وقد أخذ اللـه العهد منهما أنهما ينجوان من الاختبار لو تجنبا أربعة أشياء: الشرك باللـه، شرب الخمر، الزنا، القتل... فبقيا شهرًا يقضيان بين الناس في النهار، ثم في المساء يذكران اسم اللـه الأعظم فيصعدان إلى السماء.

وبعد شهر جاءتهما امرأة شديدة الجمال اسمها «الزهرة» (ويقال بالفارسية أناهيد) فانبهرا بجمالها وراوداها عن نفسها فقالت «كلا حتى تسجدا لصنمي وتشربا الخمر وتقتلا نفسًا»، وبقيا أياما يحاولان أن ينالا رغبتهما منها فخيرتهما بين الثلاثة فقال أحدهما للآخر «أهونها شرب الخمر» فشربا الخمر، فسكرا، فزنيا بها، فتصادف أن دخل عليهما رجل فخشيا أن يفضحهما فقتلاه.

وكانت الزهرة قد اشترطت عليهما أيضا أن يعلماها الاسم الأعظم الذي يطيران به، فعلماها إياه.. فاستخدمته لتطير، وبينما هي ترتفع مُسِخَت كوكبًا فهو كوكب الزهرة،

أما عزا وعزابيا فإنهما لما ارتكبا الخطايا حاولا الصعود للسماء فلم يستطيعا ذلك، فعرفا أنهما قد هلكا في الاختبار، فبحثا عن النبي إدريس وأخبراه أمرهما وسألاه أن يدعو لهما اللـه أن يغفر لهما، فدعا إدريس ربه ثم عاد لهما وقال «إن اللـه يخيركما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة» فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينتهي، أما عذاب الآخرة فدائم، وفقدا اسميهما الملائكيين، فصار عزا هو هاروت وعزابيا هو ماروت.

واختُلِفَ في عذابهما، فقيل هما معلقان من شعورهما بين السماء والأرض، وقيل إنهما منكسان في حفرة بها نار وقطران، وقيل إنهما معلقان بأرجلهما وبينهما وبين الماء مقدار أربعة أصابع لا يستطيعان الوصول إليه ليرويا ظمأهما.

وقيل إنهما كانا بمصر وعلّما كهنتها السحر، ثم بعد ارتكابهما الخطيئة أُمِرا أن يذهبا لأرض بابل لينالا عقابهما.

وقد تناثرت روايات عن رجال رأوهما يعذَّبان، فثمة رواية عن رجل توجه ليهودي عالم بكتب القدماء ليدله على مكانهما، فقال له «أنا أصحبك إليه ولكن إذا دخلته لا تذكر اسم اللـه» فتبعه حتى إذا دخلا كهفًا رأى رجلين عملاقين منكسين معذبين؛ أصيب بالفزع فقال «باسم اللـه» فارتج الكهف وانهارت صخوره، وسارعا بالفرار قبل أن يهلكا.

وقيل إن رجلاً قد توجه إليهما لتعلم السحر، فلما سألاه من أي القوم هو، قال «من أمة محمد» فاستبشرا وفرحا وقالا «إذن فقد اقتربت الساعة واقتربت نهاية عذابنا».

أما القصة الأكثر إثارة عنهما فهي عن امرأة ذهبت للسيدة عائشة بنت أبي بكر ـ زوجة الرسول محمد ـ وسألتها عن النبي، فأجابتها أنه قد توفيَ، فبكت المرأة وأبدت الحزن وقالت «أخاف أن أكون قد هلكت»، فسألتها السيدة عائشة عن أمرها، فقالت لها «إنني قد سافر زوجي وأطال الغياب فاشتقت إليه، فزراتني عجوز وأشفقت عليّ فقالت لي: أنا أعلمك من السحر ما يجعلك تلقين زوجك. ثم جاءتني بكلبين أسودين كبيرين، فامتطت أحدهما وامتطيت الآخر، فانطلقا بنا وما لبثنا أن بلغنا بابل، فدخلت كهفًا فوجدت رجلين معلقين منكسين فسألاني: ماذ تريدين؟ فقلت: أن أتعلم السحر. فقالا لي: إنما نحن فتنة فلا تكفري وارجعي إلى بلدك. فأصررت، فقالا لي: إذهبي لهذا الموضع وتبولي. فذهبت وخفت فلم أتبول، وعدت لهما فسألاني: هل بلتِ؟ قلت: نعم. فقالا: فهل رأيتِ شيئًا؟ فأجبت: لا. فقالا: لم تبولي.. ارجعي إلى بلدك ولا تكفري. فتكرر ذلك حتى بُلت كما أمراني، ثم عدت لهما فسألاني: هل رأيتِ شيئًا؟ فقلت: نعم.. فرسًا مُقَنَّعًا بالحديد خرج من جسمي وانفصل عني وطار.

فقالا: هذا إيمانك قد فارقك. فخرجت وقد تعلمت السحر حتى آمر أي شيء فيطيعني.. ثم ندمت فجئت لأتوب».

بدايةً، قصة هاروت وماروت غريبة حقًا، سواء بالنسبة للنصوص القرآنية التي ذكرت الملائكة أو حتى الموروث الأسطوري الذي ذكرها (راجع الفصل الأول)، ففي القرآن نرى أن الملائكة هم مخلوقات لا يعصون اللـه ولا يجادلون في أمر، وحتى قولهم «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» كان ردًا على أمر طرحه اللـه عليهم، وليس جدلاً أو اعتراضًا.. وهم في الموروث الأسطوري ساجدون دومًا أو مطرقون برؤوسهم من خشية اللـه، فكيف يتماشى هذا مع تعييرهم للبشر، ثم مخاطبتهم الإله بلهجة تحمل التبكيت بل وشيئًا من التهكم؟

الموروث الديني لا ينفي أن الملائكة قد يستفسرون عن شيء أو يسألون عنه، ولكن صياغة عبارة «هؤلاء الذين فضلت على خلقك» غريبة بالنسبة لشخصية المَلَك في النص القرآني، أو تفسيراته، أو موروث الأحاديث النبوية.

وشخصية «الزهرة» مثيرة للفضول بشدة، فالزهرة كوكب مرتبط بـ«الأنثى» في الموروث الشرقي، فهو من رموز الإلهة العراقية القديمة «عشتار»، والتي انتقلت شخصيتها عبر المتوسط لأوروبا في هيئة «ڤينوس» (الاسم الأجنبي للكوكب)، وهي كما الزهرة في رواية هاروت وماروت تمثل الفتنة الأنثوية والغواية والشهوة وتهوى إيقاع العشاق في حبائلها، وكل عشاقها ينتهون نهايات مأساوية كما نقرأ عنها في ملحمة «جلجامش» البابلية، حيث تراود البطل جلجامش عن نفسه فيعيرها بكل من أحبوها فدمرهم حبها، فهل وقع تداخُل بين الرواية الأسطورية الإسلامية والموروث الأسطوري العراقي القديم؟ وهل هاروت وماروت هما حلقتان في سلسلة مآسي عشاق الزهرة/عشتار؟

ومسألة «معرفة الاسم الأعظم المقدس الذي يحقق المعجزات» وتحايل المرأة للتحصل عليه، تذكرنا بقصة الإلهة المصرية إيزيس التي تحايلت على الإله العجوز رع ليبوح لها باسمه الأعظم لتستخدمه في ممارسة السحر، وعمومًا فإن «قوة الكلمة» هي من التيمات المنتشرة في القصص الديني بمختلف انتماءاته.

وثمة اختلاف آخر بين الرواية الأسطورية وتلك التفسيرية للقرآن لهاروت وماروت، ففي الأسطورة قد بقيا شهرًا على الأرض، بينما في بعض التفسيرات لم يكد يمر لهما يوم على الأرض إلا وكانا قد ارتكبا الخطايا كلها.

أما مسألة تعليمهما الناس السحر بينما هما منكسان يتلقيان العذاب فهي غريبة، فكيف يستطيعان أن يتحملا العذاب والعطش وفي نفس الوقت يعلمان

الناس السحر ويسألان ويجيبان عن الأسئلة؟ وكيف يتأتى أنهما قد أرادا التوبة واختارا عذاب الدنيا لينالا النجاة في الآخرة،

وأنهما ـ في نفس الوقت ـ يعلمان الناس السحر وما من شأنه التفريق بين المرء وزوجه، وهو ما يعني أنهما مستمران في المعصية، بل وفي معصية تعادل ـ في الموروث الديني ـ الكفر بالله، فكيف يأملان النجاة في الآخرة؟

وثمة تساؤل تاريخي حول معاصرة النبي إدريس ـ الذي توجها إليه ـ لوجود مدينة بابل، فمجرد قراءة بسيطة في كتب التاريخ تؤكد أن نشأة بابل كانت بعد عهد إدريس بقرون، ولكن الأساطير ـ بشكل عام ـ لا تلتزم الدقة الزمنية التي يلتزمها تدوين التاريخ. (جدير بالذكر أنه بينما تقول الأسطورة إن النبي المعاصر لهاروت وماروت كان إدريس، فإن بعض تفسيرات القرآن تقول إنه كان النبي سليمان، وهو هنا أكثر منطقية).

على أية حال، فإن المقارنة بين تناول مفسري القرآن لذِكر هاروت وماروت من ناحية، وتناول رواة الأساطير لهما من ناحية أخرى، من شأنها أن تبيّن للقارئ الفرق بين فكر كل من المفسر الذي يقيد نفسه بضوابط صارمة ـ كفهم السياق والمعرفة اللغوية بالمفردات وتوظيفها وغير ذلك ـ وذلك الرواي الذي يبحث عن الإثارة والإبهار فحسب، ويوظف لأجلهما خياله الذي ـ دعونا نعترف ـ لا يفتقر إطلاقا إلى الخصوبة.

VII
دمار بُرج بابل وهلاك الملك النمروذ

هل قرأت من قبل تعبير «بُرج بابل»؟ إنه يعبر عن تنوع اللغات والألسنة، ولهذا قصة مرتبطة بمدينة بابل، وبرجها المسمى في التراث الإسلامي بـ«الصرح» وهو الذي بناه الملك النمروذ.

اسمه «النمروذ بن كنعان»، وفي بعض الروايات النمروذ بن كوش بن كنعان، قيل إنه قد مَلك الأرض كلها، حتى قيل إن الأرض قد ملكها مؤمنان وكافران، فالمؤمنان هما سليمان وذو القرنين، والكافران هما النمروذ وبختنصر (نبوخذنصر البابلي الذي سبى اليهود)، ولكن كُتاب التاريخ المسلمين ينفون عنه ذلك ويقولون إن ملك الأرض في زمن النبي إبراهيم كان ملكًا من العجم اسمه «الضحاك»، وإن النمروذ كان ملكًا على بلاده فقط.

في كل الأحوال فإن النمروذ هو الاسم الشائع للملك المعاصر للنبي إبراهيم، والوارد ذكره في القرآن والقصص الديني، بل وقد دخلت الكلمة في اللغة العربية بمعنى التمرد والمشاكسة والإيذاء، فيقال بالعامية «فلان ده نمرود».

قصة النبي إبراهيم في القرآن معروفة فلا داعي لتكرارها، ولكن غير المعروف لكثير من القراء هو ما جرى للملك بعد نجاة إبراهيم من النار، وهي رواية دوّنها الرواة، ونجدها أيضا في كتب المفسرين مثل الطبري والقرطبي وابن كثير (ملاحظة هامة هنا: المفسر يورد في تفسيره مختلف الآراء والروايات وقد يرجح بعضها.. فتضمين تفسيره لآية رواية أو أخرى لا يعني إقراره لها واقتناعه بها بالضرورة).

تقول القصة إن النمروذ كان يمنح الناس الطعام، وكان كلما لقي أحدهم سأله «من ربك؟» فيقول «أنت» فيعطيه، فلما مر به إبراهيم سأله الملك «من

ربك؟» فأجاب «ربي الذي يحيي ويميت» فقال «أنا أحيي وأميت»، وكان يعني بذلك أنه يقضي بالإعدام فيميت ويعفو عن المقضي عليه بالإعدام فيكون قد أحياه، فكان رد إبراهيم «إن اللـه يأتي بالشمس من المشرق فأْتِ بها من المغرب»، وهنا يقول القرآن عن رد فعل النمروذ «فبهت الذي كفر».

هذا الجزء من القصة يفترض أن مجادلة الملك مع إبراهيم كانت بعد الحكم بحرقه ثم نجاته، وليس قبلها كما هو شائع.. كما أنه يتبعه مقطع آخر غريب هو أن إبراهيم قد التمس من الملك منحة الطعام، فلم يعطه شيئًا لأنه لا يؤمن بربوبيته، وهو فعل مستغرب غير منطقي صدوره من رجل قد أعلن كفره بربوبية هذا الملك وبآلهة قومه، وحطم أصنامها وسخر منها ومنهم.

يقول باقي القصة إن إبراهيم في طريق عودته لأهله قد ملأ جوالين من التراب ليشغلهم بهما حتى يجد الطعام، فلما نام فتحت امرأته الجوالين فوجدت بهما أجود الطعام.

ثم ارتحل إبراهيم بعد ذلك حاملاً أهله ومن آمنوا به معه.

أما النمروذ فقد غضب من دعوى إبراهيم فقرر أن ينازل رب السماء، فجاء بأربعة أفراخ نسور ورباها وغذاها باللحم والخمر (الخمر؟!)، حتى إذا نضجت وقويت واشتدت صنع صندوقًا من الخشب به فتحة في سقفه وأخرى في قاعه، وربط به الأربعة نسور وجعل غلامًا سائسًا للنسور يرفع عصًا بها لحم، فطارت النسور إلى فوق وهو يرفع العصا، فارتفع الصندوق بالغلام والملك صعودًا، حتى إذا ما بلغا ارتفاعًا عاليًا نظر النمروذ من الفتحة السفلى للصندوق فرأى الأرض صغيرة جدًا وبلغ ظلام السماء.. فوضع سهمًا في قوسه وصوبه للسماء وأطلقه فعاد السهم ملطخًا بالدماء، فقال الملك «انتهيت من أمر رب السماء»، وقيل إن الدم كان لطائر عابر أو لسمكة من بحر السماوات (راجع الفصل الأول).. وأمر الملك الغلام فنكس العصا حاملة اللحم إلى أسفل فطارت النسور عائدة للأرض، فعندما هوى الصندوق هابطًا بسرعة شديدة سمعت الجبال صوته، فخشيت أن تكون الساعة قد أتى موعدها فكادت تزول وهو ـ على حد قولهم ـ تفسير ما جاء في القرآن «وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال».

طبعًا القارئ ليس في حاجة لتعليق مني على مدى منطقية القصة ومعقوليتها، ولكن الغريب ورودها في بعض التفسيرات باعتبار أنها محتملة الوقوع.

بالمناسبة، فإن قصة إطلاق السهم على السماء وعودته ملطخًا تشبه ما تناقله بعض كتب التراث الديني، عن أن يأجوج ومأجوج حين يخرجون في آخر

الزمان سيطلقون رماحهم على السماء، فتعود ملطخة فيقولون «قتلنا من في السماء».

وعودة للنمروذ، فإنه لم يكتفِ بما فعل، فقد كان قبل «طيرانه» قد أمر ببناء صرح عملاق ارتفاعه خمسة آلاف ذراع، ليصعد فوق سطحه ويرى إله إبراهيم، فلما هبط من رحلته مع النسور أرسل اللـه ريحًا أسقطت الصرح، فجعلت رأسه في البحر ودكت سقفه على من فيه، فأصيب الناس بالفزع وتبلبلت ألسنتهم فتفرقت لغاتهم إلى 73 لغة، وكانوا قبلها يتحدثون السريانية.. فسميت المدينة «بابل» لتبلبل الألسنة! وهذا هو المقصود من تعبير «برج بابل»، أي التنوع.

بعد ذلك أرسل اللـه مَلَكًا للنمروذ ليدعوه إلى عبادة اللـه، فقال مستنكرًا «أربٌّ غيري؟» فلما تكرر بعث الملك إليه، قال له النمروذ «اجمع جمعك ـ أي رجالك وجنودك ـ وأجمع جمعي» في دعوة للحرب.. فجمع النمروذ جنوده ففتح اللـه عليهم بابًا من البعوض فأهلكهم والتهمهم، ولم يترك منهم سوى العظام.

أما النمروذ فقد أرسل اللـه عليه بعوضة دخلت من أنفه فبلغت مخه فعذبته، فكان لا يستريح إلا بضرب المطارق على رأسه، وبقي في العذاب 400 سنة كمدة مُلكه قبلها 400 سنة (أي أنه قد عاش ما يزيد على 800 سنة!).

وهذه القصة أيضًا ـ وهو مثير للدهشة ـ قد ذكرها بعض المفسرين، ولكن على أية حال فالمفسر قد يرى أن يذكر كل الآراء والروايات من منطلق الموضوعية.. وهو لا يقول «وقع كذا» على وجه اليقين، وإنما يقول «قال فلان» أو «حدثنا فلان»، فهو ينقل الرواية ولا يؤكدها بالضرورة.

بالنسبة للخوارق في قصة الصرح والبعوض، فدعونا نعترف أننا ما دمنا نتحدث عن نص مصنف باعتباره «كلامًا منزلاً من الإله» فإن هذه هي أول الخوارق، وبالتالي فإن تضمنه ذكرًا لمعجزات هو أمر طبيعي في سياق النص.. والقرآن به ذكر كثير لوقائع إهلاك الكافرين بطرق خارقة، وبالتالي فنحن نقرأ الرواية في ضوء الواقع التاريخي أو مدى تعارضها مع النصوص الدينية، سواء قرآنية أو أحاديث يقرها المشتغلون بالعلوم الدينية الإسلامية.

إذن فبالنسبة لنصوص القرآن فإن قصة الصرح والبعوض لا تناقضها في شيء..

أما الواقع التاريخي، فإن قصة إصابة الناس بالذعر وبلبلة ألسنتهم وتفرقهم على 73 لغة، وأن النمروذ قد حكم 400 سنة، وأن مصدر اسم بابل هو «بلبلة الألسنة» وما إلى ذلك، فهو يتعارض مع التاريخ بشدة.

فبابل التي عاصرها النبي إبراهيم كانت تحمل هذا الاسم قبل ميلاده حتى، وتفرق ألسنة الناس إلى لغات مختلفة هو أمر سبق إبراهيم بقرون، فقد سبقته حضارات ودول مصر القديمة، وفينيقيا في الشام، وسومر وبابل وأشور في العراق، وغيرها، ولكل منها لغته، وهذا تثبته الآثار التي خلفتها تلك الحضارات.

ولا تعليق طبعًا على جزئية أن النمروذ حكم مملكته 400 سنة، فافتراض الطول الخارق للأعمار هو أمر منتشر في الكتابات التراثية.. ونحن نقرأ فيها عن ملوك تقدر أعمارهم بالقرون لا بالعقود.

الشيء الوحيد الذي لا يتعارض مع الواقع هو بناء الصرح ـ ليس إلى هذا الحد من الارتفاع بالطبع ـ فمعابد العراق كانت عادة تُبنى في شكل أشبه بالأبراج على قمم مرتفعة.

أما تفسير ورود أحداث مثل «تفرق الناس بين اللغات» أو «تسمية بابل» فهو أن رواة الأسطورة الدينية قد يمزجون بها بعض «التعليل» لأمور الحياة، مثل «لماذا تختلف لغات الناس؟» أو «لماذا تحمل هذا المدينة هذا الاسم» (وافتراض أن بابل مصدرها البلبلة يقتضي أنهم كانوا يتحدثون العربية! تمامًا مثل افتراض أن إدريس سُمي بذلك لكثرة درسه الكتب).

فمن أهداف الأسطورة دومًا تعليل بعض الواقع..

وهو ما سنقابله كثيرًا في القصص التالية.

VIII

مَن هو الـخضر؟

إذا شممتَ يومًا رائحة طيبة وسمعت بعض العجائز يقلن «هذا سيدنا الخضر يمر بالمكان» فلا تندهش.. وإذا سمعت في بلاد الشام بعض الفلاحين يتوسلون باسمه فيقولون «يا سيدي الخضر الأخضر اسق زرعنا الأخضر» فلا تستغرب.

بل ولعلك قرأت في بعض كتب التراث الإسلامي أن الخضر كان يتعبد كل ليلة في المسجد الأموي بدمشق، أو أنه ـ بعد وفاة الرسول محمد ـ قد زار صحابته وعزّاهم، أو أن الرسول محمدًا نفسه كان يمر ببعض الكهوف مع أحد صحابته، فدخل الصحابي الكهف وقابل الخضر بداخله، وطلب منه الخضر أن يُقرئ الرسول محمدًا السلام، وكان الصحابي قد سمعه يدعو «اللـهم اجعلني من أمة محمد».

وقيل عنه أيضا إنه يحج كل عام ويشرب من زمزم شربة ماء تكفيه للموسم التالي..

وفي الموروث الشعبي أنه إذا ذُكرَ اسمه حضر فرأى الناس ولم يروه، وله كُنَى وألقاب مثل «أبو العباس» و«الإمام الأعظم» و«قطب الرجال» و«نقيب الرجال» و«الأستاذ» (وهي على ما يبدو ألقاب صوفية).

لا تندهش ولا تستعجب، فبالنسبة للكثيرين الخضر لم يمت، بل نال الخلود إلى قرب يوم القيامة، وهو يطوف بالعالم كالروح اللطيفة غير المحسوسة إلا بالرائحة أو باخضرار المواضع التي قد يسير عليها، أو يصلي فيها، وبرائحة زكية مجهولة المصدر تعلن عن وجوده أينما مَرّ.

* * *

في القرآن لا نجد ذكرًا صريحًا لاسمه وإنما لصفاته وقصته مع النبي موسى، وفي الأحاديث النبوية المصنفة «صحيحة» نقرأ اسم «الخضر» وتفسيره أنه قد

جلس على فروة بيضاء فاهتزت واخضرّت.

وحاول البعض معرفة أصله، فقيل هو ممن آمنوا بالنبي إبراهيم وخرجوا معه من بلاده، وقيل إنه حفيد آدم مباشرة من ابنه قابيل، وإن آدم حين حضره الموت كان قد أخبر أبناءه بالطوفان، وأوصاهم أن ينقلوا جثمانه في السفينة، حتى إذا ما استقرت وابتلعت الأرض ماءها دفنوه في موضع عيّنه لهم، فلما وقع الطوفان حملوا جسده، ثم عندما جفت الأرض تقاعسوا عن دفنه فدفنه حفيده الخضر، وكان آدم قد دعا ربه بطول العمر لمن يدفنه، فنال الخضر الدعاء، فهو يُعَمَّر حتى يشهد خروج المسيخ الدجال ويُكذبه.

واختُلِفَ في أمره: هل هو ولي من أولياء اللـه أم نبي من أنبيائه؟ فانتصر الغالب لكونه نبيًا، معللين ذلك بأن أفعالا مثل قتل الصبي وخرق السفينة لا تُقبَل إلا من نبي معصوم يأتيه أمر ربه مباشرة، بينما لا تُقبَل من ولي يفعل ما يقع في نفسه ويخطر بذهنه.

أما في القصص التراثي ـ بالذات كتاب «عرائس المجالس» للثعلبي (لو لاحظ القارئ فهذا أكثر الكتب التراثية الإسلامية احتواء على الأساطير) ـ فنقرأ عنه قصة مثيرة تستحق النظر.

تقول قصة الخضر إنه كان ابن ملك عادل، لكن أباه وقومه لم يكونوا يعبدون اللـه، وكان اسمه قبل حمل لقب «الخضر» هو بليا بن ملكا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وكان ـ آنذاك ـ فتى وحيد أبيه، فأراد الأب أن يزوج ابنه لينجب ولدًا ويستمر المُلك في عقبه، ولكن الابن كان عازفًا عن الزواج زاهدًا في الحكم راغبًا في أن يتفرغ لعبادة اللـه.

وكان سبب إيمانه باللـه وتفرغه للعبادة أن أباه كان قد أرسله إلى معلم، وكان بين منزله ومنزل المعلم عابد صالح فكان يبقى عند العابد، وكان إذا غاب حسبه أبوه عند المعلم وحسبه المعلم عند أبيه.

وألح الأب في تزويج ابنه، وبالفعل زوّجه ابنة أحد الملوك، فلما اختلى بها الابن قال لها «إني رجل مسلم لست على دين أبي، وإني عارض عليك أمرًا فاكتمي سري لتنالي النجاة في الدنيا والآخرة، ولا تفشيه فتهلكي في الدنيا والآخرة، إما أن تتركيني أتفرغ للعبادة وتتابعيني على ديني، وإما أن أرسلك إلى أهلك» فاختارت متابعته على دينه وتركه يتفرغ لعبادة ربه، وكتمت سره.

فلما استبطأ الملك إنجابها أحضرها وسألها عن ذلك، فقالت «هو بيد اللـه» (والغريب أن الملك الذي لا يؤمن باللـه لم يستغرب الإجابة)، ولم تفش سِر زوجها، فأمر الملك بتطليقها من ابنه وزوّجه امرأة سبق لها الإنجاب، فعرض عليها الفتى نفس ما عرض على زوجته الأولى فوعدته بكتمان أمره.

حتى إذا ما استبطأ الملك إنجابها ابنًا سألها «كيف ذلك وأنتِ ولود؟» فأفشت سر زوجها، وقالت «ما مسني منذ تزوجنا»، فأحضر الملك ابنه وعنّفه، فخاف الابن غضب أبيه وفر من البلاد.

فأرسل الملك مئة رجل في طلب ابنه، وأرسلهم من طرق مختلفة، فوجده عشرة منهم في جزيرة يتعبد للـه، فسألهم «هل أرسل أبي غيركم؟» قالوا «نعم» فقال لهم «فإني أسألكم أن تكتموا أمري حتى لا يصيبكم شر الدنيا وعذاب الآخرة، ويغضب عليّ أبي فيقتلني فتؤخذوا بدمي»، فوعدوه أن يخبروا أباه أنهم لم يجدوه.

فلما عاد العشرة إلى الملك أفشى تسعة منهم سر ابنه وقال العاشر «بل لم نجده»، فأرسل الملك يتحقق من الأمر.. وكان الابن قد خشي أن يفشَى سره فهرب من الجزيرة، فلما لم يجده مبعوثو الملك ظن أن التسعة سالفي الذكر قد كذبوا عليه، فأمر بقتلهم وصلبهم، وقتل معهم الزوجة الثانية لابنه وقد اتهمها أنها السبب في هربه.

وكان الرجل العاشر ـ الذي وفى بوعده للابن ـ قد خشي على نفسه، وكانت الزوجة الأولى كذلك قد خافت على نفسها غضب الملك، فهرب كل منهما وتصادف أنهما بلغا نفس البلد، فالتقيا بالصدفة وسمع الرجل المرأة تقول «باسم اللـه» فعرف أنها مؤمنة، فسألها عن أمرها فأخبرته، فقال لها «هلا تزوجنا فنعبد اللـه معًا حتى نموت؟» فوافقت، وانتقلا لقرية من بلد يحكمه «الفراعنة» ـ على حد قول الراوي ـ فأنجبا ثلاث أبناء، فجمع الأب أبناءه وزوجته وقال لهم «إني أكره إن متنا أن نُدفَن مع هؤلاء القوم الذين لا يؤمنون باللـه، فدعونا نتفق أنه إن مات أحدنا دفنه الآخرون في البيت، حتى إذا ما حضر آخرنا الموت أوصى أن يُهدَم البيت عليه بعد موته، فيكون قبرنا جميعًا.

ومات الرجل فدفنته امرأته في الدار.

وبلغ «فرعون» أن المرأة وأبناءها يعبدون اللـه ويوحدونه (ليس بالضرورة فرعون موسى، لأن كتاب التاريخ المسلمين يقولون بأنه قد حكم مصر خمسة فراعنة من أصول غير قبطية.. راجع كتاب «فرعون موسى» لعاطف عزت) فأحضرهم وهدد المرأة أن ترجع عن دينها وإلا قتلها وأولادها، فلما أبوا أحضر قدرًا وسخنه ثم ألقى أول ابن فيه فتفسخ جسده، ثم ألقى الثاني فجرى له ما للأول، حتى إذا ما أرادوا إلقاء الثالث ـ وكان رضيعًا ـ حاولت منعهم فأنطقه اللـه فقال «اصبري يا أماه فإننا جميعًا في الجنة»، فألقوه، وفي الغد عندما أرادوا قتلها قالت لهم «لي طلب أخير» وسألتهم أن يجمعوا عظامها وعظام أبنائها تحت دارهم، وأن يهدموه عليهم، ففعلوا.. وتقول الرواية إن الرسول

محمد في رحلة إسرائه شم رائحة طيبة، فسأل جبريل عنها، فقال إنها رائحة هذه المرأة المؤمنة وآلِها.

وعودة لقصة الخضر، فإن ثمة رواية أخرى عنه تقول إنه في أثناء تعبده في الجزيرة لقيه تاجران من مدينة أبيه، كانت سفينتهما قد غرقت وتعلقا بلوح خشب حتى بلغا جزيرته، فطلب منهما أن يكتما أمره، ونادى سحابة مارة وأمرها أن تحملهم إلى مدينتهم، فلما بلغاها كتم أحدهما السر وأفشاه الآخر، فلما بعث الملك رجالاً للجزيرة لم يجدوا ابنه فأمر بصلب الغادر.

أما الموفي بعهده للخضر فقد تزوج الزوجة الأولى سالفة الذكر، وآمنا باللـه واعتزلا قومهما وكان الفساد قد فشى في مدينتهم، فأرسل اللـه المَلَك جبريل فرفع المدينة بطرف جناحه إلى أعلى السماء، حتى سمع أهل السماء نباح كلابها وصياح ديوكها، ثم ألقاها فجعل عاليها سافلها وأهلك أهلها.. ولم ينج منهم سوى الرجل والمرأة المؤمنين، فرحلا عنها وذهبا لبلاد فرعون، وأوصى الرجل أهله بما أوصى من دفن ثم هدم للبيت، ثم تقربت المرأة لآل فرعون حتى صارت ماشطة ابنتهم، فبينما هي تمشطها سقط المشط فقالت «باسم اللـه.. تَعسَ من كفر باللـه» فسألتها الأميرة «وهل من رب غير أبي؟» ثم أخبرت فرعون فجرى منه مع المرأة ما سبق ذكره.

وللخضر قصة موازية تقول إنه كان يومًا يمر ببعض أسواق بني إسرائيل، فلقيه فقير فسأل الخضر باسم اللـه أن يعطيه شيئًا، فلما لم يكن مع الخضر من شيء يعطيه قال للرجل «سألتني باسم اللـه وأنا أستحي أن أسأل باسمه ولا أعطيك، خذني فبعني وخذ ثمني» فأخذه الرجل وباعه عبدًا وأخذ ثمنه.. فترفق به الذي اشتراه ـ وكان الخضر قد كبرت سنه ـ ولم يكلفه بعمل ثقيل، فألح عليه الخضر أن يشغله، فأمره الرجل بحمل بعض الحجارة ونقلها، وكانت لا ينقلها الرجل القوي إلا في يوم فنقلها الخضر في ساعة.. فاستغرب الرجل ثم أمره أن يبني له بيتًا فبناه بأسرع ما يكون، فسأله عن أمره فأخبره الخضر فاستحى الرجل وأطلقه ليتركه يتعبد للـه.

ثم لقيه موسى وهو جالس على فروة خضراء تحمله على سطح الماء (لاحظ التأثير الصوفي في حمل الرجل الصالح على سطح الماء)، فألقى عليه السلام، فرد الخضر «وأنَّى بأرضكَ السلام؟» ثم كان بينهما ما ذكر القرآن بعد ذلك.

وفي كل الأحوال فإن الرواية الأسطورية لقصة الخضر تقول إنه قد لقي ذا القرنين، وصار على مقدمة جيشه وصحبه في رحلته (سنقرأ عن دوره مع ذي القرنين لاحقًا عندما يأتي ذكر قصة هذا الأخير)، ثم وجد «عين الحياة» التي

تمنح الخلود لمن شرب ماءها، فشرب منها فهو خالد حتى يُرفَع الإيمان من الأرض، وقيل حتى يخرج المسيخ الدجال.

* * *

بينما يذكر الرواة والإخباريون هذه القصة، يعترض المفسرون والمؤرخون ـ مثل إسماعيل بن كثير ـ على مسألة عين الحياة وخلود الخضر، ويرونها من قبيل الخرافات.. ويعلق ابن كثير عليها قائلاً إن الخضر لو عاصر بعثة الرسول محمد فلماذا لم يلقه ولم يتبعه ولم يقف تحت رايته في غزواته؟ ويذكر أن الرسول قد قال يوم غزوة بدر إن اللـه لو أهلك المؤمنين فيها لن يُعبَد في الأرض بعدها أبدًا، فكيف ذلك لو كان الخضر حيًا يتعبد؟ ويسوق حديثًا عن الرسول محمد يقول فيه إن بعد مئة عام من لحظة صدور هذا الحديث، لن يكون أحد من أهل الأرض المعاصرين لهذه اللحظة على قيد الحياة، فكيف يخلد الخضر؟

هذا تعليق ابن كثير، وهو تعليق يستحق النظر والتأمل، بالذات فيما يتعلق بمعاصرة الخضر للبعثة المحمدية.

* * *

الجديد في هذه الأسطورة أنها تتداخَل مع بعض القصص الديني كقصة «ماشطة آل فرعون» في سياق قصة النبي موسى، فقد جعلتها الرواية سالفة الذكر المرأة المؤمنة على يد الخضر، والتي كتمت سره فنالت الشهادة على يد فرعون نفسه، أو قصة إهلاك المدينة بجعل عاليها سافلها، وهو المصير الشائع لقوم لوط في قصته، في إشارة إلى أن الخضر كان من مدينة قوم لوط.. وتتناقض في نفس الوقت مع ذكر أن ملكها (أبا الخضر) كان يسير في دولته سيرة حسنة.. كما أنها تُظهِر تقلبات أحوال الخضر عبر الأزمنة، فهو أمير وولي للعهد، ثم هارب من أبيه، ثم عابد متوحد، ثم عبد لبعض بني إسرائيل، ثم قائد في جيش ذي القرنين، وعبد صالح حكيم ومعلم للنبي موسى (وهي الجزئية الوحيدة التي يقرها النص القرآني)، ثم واحد من الأولياء الخارقين أهل الخطوة والشفافية والخلود وتحقيق المعجزات بالتوسل باسمه.. أي أن قصته قد اكتسبت تأثير قصص قديسي المسيحية أو أولياء التصوف الإسلامي.

بل ويشير الباحث فراس السواح، في بعض كتاباته عن أساطير الشام القديم، إلى أن شخصية الخضر قد امتزجت في الموروث الشعبي بشخصيات بعض الآلهة، مثل الإله «بعل» الفينيقي الذي يتحكم بالأجواء وينشر الخضرة.. ويدلل على ذلك بأن الفلاحين الذين كانوا منذ قرون طويلة يذكرون اسم بعل

وهم يزرعون ويحصدون، قد صار أحفادهم الآن يذكرون اسم الخضر وهم يمارسون نفس النشاط.

والمدقق في بدايات قصة الخضر «الأمير الزاهد في الحكم، الهارب من زينة الحياة الدنيا» يلاحظ تشابهًا قويًا مع قصة «جوتاما/بوذا» في الموروث الروحي الآسيوي، أو شخصية «إبراهيم بن أدهم» في صياغتها الصوفية، فكل منهما كان ـ والعهدة على رواة سيرته ـ ابنًا لأسرة نبيلة ترك الثراء وزهد النعيم الدنيوي وتفرغ للعبادة والتأمل، فهل تكون سيرة الخضر قد تأثرت في هذه التفصيلة منها بقصتيهما؟

اختصارًا، فإن الخضر قد تأثر، في الوجدان الشعبي والموروث الأسطوري، بمختلف الثقافات والحضارات التي مرت بالمنطقة العربية الشرقية والمناطق المتاخمة لها.. وهو بحق أكثر الشخصيات المذكورة في القرآن تنوعًا من حيث مستويات تناوله، فهو مذكور في القرآن والحديث النبوي والقَصَص الديني والأساطير الإسلامية والتراث الشعبي، وله في كل منها أبعاد ومواصفات وأفعال مترابطة ومتكاملة، تكفي لصياغة فكرة عامة عنه وعن شخصيته.. أي أنه «حالة» تاريخية/ دينية/ تراثية ثرية جدًا، تستحق الدراسة والبحث بأكثر مما تسمح به صفحات هذا الكتاب.

IX

عصا النبي موسى ومنافعها الخارقة!

في القرآن الكريم نقرأ سؤالاً طرحه الله على النبي موسى «وما تلك بيمينك يا موسى؟» فأجابه موسى «هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى».

يحلل المفسرون الآية فيقولون إن قول الله «ما تلك بيمينك يا موسى» لم يكن استفسارًا أو استفهامًا، لأن الله ـ باعتباره الإله العالم بكل شيء ـ يعرف بالتأكيد ما تلك التي بيد موسى وماذا يفعل بها، وإنما سأله على سبيل التمهيد لإظهار معجزة تحولها لعصا.

وعن رد موسى يقولون إنه كان يتكئ عليها في وقوفه وحركته، ويهش بها أغصان الأشجار، فتسقط الورق على غنمه لتأكل منه، ويفسرون «مآرب أخرى» بأنه قد يعلق عليها رَحله أو وعاء الماء.

كل ما سبق يقتضي أن موسى ـ قبل موقف تحول العصا لثعبان ـ كان يرى عصاه مجرد عصا عادية لا تختلف عن عِصيّ الرعاة.

في هذا الشأن تختلف الرواية التفسيرية للقرآن عن تلك الأسطورية، فتلك الأخيرة تعطي العصا مزايا وقدرات خارقة.

* * *

تبدأ قصة العصا بأنها كانت عند النبي شعيب ـ وقد أعطاها له أحد الملائكة ـ فلما خرج موسى من مصر إلى بلاد مَدْيَن وتزوج ابنة شعيب وعمل برعي الغنم، أمر شعيب ابنته أن تأتي لموسى بواحدة من عصيه ليهش بها على غنمه، فأتته بهذه العصا، فقال لها شعيب أن تردها وأن تأتي بغيرها، فكانت كلما ردتها رجعت لها العصا، فعلم شعيب أنها لموسى فأعطاه إياها.. وكانت عصا الأنبياء يتوارثونها.

ويضيف الراوي أن شعيبًا قد ندم على إعطائه العصا لموسى لأنها وديعة عنده، فطلب منه ردها فرفض موسى، فاتفقا أن يُحكّما أول رجل يمر بهما، فجاءهما مَلَك على هيئة بشر وقضى أن توضع العصا أرضًا وأن من يحملها فهي له.. فحاول شعيب رفعها فلم يقدر، أما موسى فحملها، ففهم شعيب أن اللـه يريدها أن تكون لموسى.

وثمة رواية غيرها تقول إن النبي موسى، حين رحل من مَديَن إلى مصر، لقيه المَلَك جبريل وأعطاه هذه العصا.

ويقول كعب الأحبار إن العصا اقتطعت من أول شجرة غرسها اللـه بالأرض.

ووصف عصا موسى أنها كانت ذات شعبتين في رأسها (أي أنها على هيئة حرف Y) وبكل شعبة منهما نهاية معقوفة، وكان أسفلها مدببًا.

وأما عن مآربها فهنا تبدأ الخوارق، فيُروَى أن شعبتيها كانتا تتوهجان بالنار ليلاً لو غاب القمر، وإن أراد موسى الشرب دلاها في البئر فتتحول نهايتها لما يشبه الدلو وتحمل الماء، ولو طلب الطعام ضرب بها الأرض فتخرج له طعامه، أو غرسها في الأرض فينبت من نهايتها ما يشتهي من فاكهة، وكان موسى يشرب من إحدى شعبتيها اللبن ومن الأخرى العسل!

ولا تنتهي عجائب العصا، فهي تنفعه في تنقله، فإذا بلغ جبلاً وعرًا أو طريقًا به شوك أفرجت له العصا ممرًا يمشي فيه، ولو أراد عبور نهر أو بحر ضربه بها فينشق له فيه طريق يابس، ولو أتعبه المشي ركبها فتحمله حيث شاء.. أما لو خشي من اللصوص أو أخطار الطريق فإنها تنبهه وتقول له «خذ جانب كذا واحذر جانب كذا».. ولو لقي عدوًا تحولت شعبتاها إلى تنينين يقاتلان عنه.

ويذكر الراوي قصة معرفة موسى بـ«قدرات» عصاه، فيقول إن النبي شعيبًا قد نصح موسى يومًا بأن يتجنب طريقًا به تنين يهاجم الغنم، فلم يستطع موسى تجنبه ودخله ونام، فلما استيقظ وجد العصا بجواره دامية والتنين مقتولاً، فعرف أن التنين قد هاجمه في نومه وأن العصا قد قامت وحاربته وقتلته.

ولا ينسى صاحب قصة خوارق العصا أن يصف هيئة الثعبان الذي تتحول إليه، فيقول إنه ثعبان عملاق أسود يدب على أربعة قوائم، وله عرف من نار واثنا عشر نابًا تطلق صريرًا مرعبًا، وأنه يطلق اللـهب فيحرق ما يصيبه، ويبتلع الصخرة الضخمة ويقسم الشجرة العظيمة وهو في خفة الجن وليونة الحية.. (كأنه يصف كائن التنين الخرافي في الأساطير القديمة).

* * *

لا أرى أن قصة العصا تحتاج إلى تعليق مستفيض، فهي عبارة عن محاولة بدائية لإشباع الفضول الغريزي حول كل تفصيلة يذكرها القرآن ولا يستفيض في شرحها.. وقد بلغ هذا الفضول حد تأليف قصة تناقض أصلاً فكرة الإعجاز في تحويل العصا إلى ثعبان كما ورد بالقرآن، فهي في الأسطورة عصا عجيبة خارقة لذاتها، وليس لارتباطها بمعجزة خاصة بالنبي موسى بالذات، وهي كذلك تهدم أية ضرورة للحوار بين اللـه وموسى حول ماهية العصا والأمر بإلقائها، بل وبقول اللـه لموسى «خذها ولا تخف»، فمعنى خوف موسى منها أنه رأى ما لم ير من قبل، وهو ما يناقض الأسطورة التي تفترض أنه يعرف قدرات عصاه فلا يندهش منها.

وعلى أية حال فإن الأسطورة الإسلامية، والأسطورة بشكل عام، عادة ما تسير في سياق خاص بها، فلا تعتني كثيرًا بمسايرة سياق النصوص المقدسة التي تحاول تفسيرها.

X

عوج بن عنق.. العملاق المُعَمِّر

الذي قتله النبي موسى بضربة عصا

في قصة النبي موسى وبني إسرائيل نجدهم حين أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ـ يقال أريحا ويقال إيلياء (القدس حاليًا) ـ قد رفضوا ذلك، وعللوا رفضهم بأن «فيها قومًا جبارين»، وأصرّوا أنهم لن يدخلوها ما دام بها هؤلاء القوم، وأنهوا جدلهم مع موسى بعناد قائلين «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون» فقضى اللـه عليهم بالمكوث في التيه في سيناء لمدة أربعين سنة، وتحريم الأرض المقدسة عليهم حتى يفنيهم التيه وينشأ منهم جيل جديد قادر على محاربة هؤلاء الجبارين (أنصح بقراءة تحليل المؤرخ ابن خلدون لهذا الأمر في كتابه المقدمة).

وقيل في بعض التفاسير إن المقصود بالقوم الجبارين هو أن سكّان تلك الأرض كانوا ضخام البنية بشكل ملحوظ، وأن الواحد منهم يعدل حجمه حجم عدة رجال من بني إسرائيل.. ولكن المثير في محاولات تفسير وتحليل الآية هو شخصية «عوج بن عنق» العملاق الجبار، والتي ذكرها عدة رواة ومؤرخين.

تبدأ القصة بأن تلد حواء ابنة منفردة ـ وكانت عادة تلد التوائم ـ مشوهة لها رأسان بين كتفيها، ولها في كل كف عشرة أصابع، ينتهي كل إصبع بمخالب طويلة معقوفة.. هذه الابنة تحمل اسم «عنق».

ونمت «عنق» وكبرت ولكنها كانت من المفسدين، وكانت أول من مارس البغاء والزنا من ولد آدم، بل وأول من مارس السحر كذلك، فقد كان اللـه قد أعطى حواء أسماء وكلمات تتحكم بالشياطين وتكون حرزًا للبشر منها،

فاستغلت «عنق» نوم أمها وسرقت تلك الأسماء وصارت تمارس بها السحر والإفساد في الأرض.. وكانت تعيش في الخرائب لتختلي عن أهلها، وأنجبت من الزنا ابنها «عوج» (وفي بعض الروايات اسمه عاج بن عناق).

زاد فساد «عنق» فدعت عليها حواء، فأرسل اللـه أسدًا في حجم الفيل افترسها وأراح أهلها منها.

أما «عوج» فقد كبر وتعملق حجمه حتى يوصف أنه بلغ من الطول 23000 ذراع ومن العرض 333 ذراعًا، وبلغ من القوة أنه كان يصيد بيده الحوت من البحر فيرفعه لعين الشمس فيشويه فيها ثم يلتهمه، وأنه كان إذا أراد الشرب استوقف السحاب فشرب منه.. وكان جبارًا في الأرض فخورًا بقوته مفسدًا، وكان معمرًا عاصر الطوفان وسأل النبي نوح أن يحمله معه في السفينة فزجره النبي وقال له «لم أومر بك يا لعين»، فكانت مياه الطوفان تبلغ ركبتيه!

وعاش عوج بن عنق حتى جاوز عمره الثلاثة آلاف سنة، وفي زمن موسى وخروج بني إسرائيل من مصر كان يعيش في منطقة سيناء وفلسطين مع امرأته، فلما قسّم موسى قبائل بني إسرائيل إلى 12 قبيلة، وجعل لكل منها نقيبًا، وأمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، ذهب النقباء أولا ليستطلعوا تلك الأرض وناسها، فوقعوا في أسر عوج الجبار.

فلما أسرهم عوج ربط كل واحد منهم في عود حطب، وحمل الأعواد لبيته وقال لامرأته «أرأيتِ هؤلاء؟ إنهم يريدون غزونا، سألقيهم أرضًا وأسحقهم بقدمي» فأجابته المرأة «لا تفعل، بل دعهم يعودوا لقومهم ليخبروهم عنا وعمّا رأوا من قوتنا فيخشونا».

نفذ العملاق نصيحة زوجته وعاد النقباء إلى موسى يخبرونه عن هول ما رأوا، فأمرهم أن يكتموا ذلك عن بني إسرائيل حتى لا ينشروا الفزع بينهم، فوعدوه بذلك.

ولكنهم لم يلتزموا ما وعدوا، فأسر كل منهم لعشيرته بما رأى، عدا نقيبين هما يوشع بن نون والآخر كالب بن يوفنا ـ وكان زوج أخت موسى ـ فقد كتما الأمر.

فضج بنو إسرائيل وهاجوا وأعلنوا لموسى رفضهم دخول تلك الأرض إلا لو خرج منها هؤلاء الجبارون، وقالوا له مقولتهم الشهيرة «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون».

وهنا يوحي اللـه لموسى أنه غاضب على هذا الشعب الجاحد، وأنه سيهلكهم ويمنح موسى شعبًا أقوى وأكثر شجاعة يحارب معه، فراجع موسى ربه قائلاً

إنه لو أهلك بني إسرائيل فسيقال إنه فعل ذلك لأنه لم يقدر أن يدخلهم الأرض المقدسة، والأفضل أن يصبر عليهم، فأجابه اللـه أنه لن يهلكهم ولكنه سيحبسهم في التيه 40 سنة حتى يهلك كل من فوق العشرين من العمر، وينشأ منهم جيل جديد قوي.

أما «عوج» فإنه فيما يبدو قد قرر أن يبادر إلى مهاجمة بني إسرائيل، فبينما كان موسى يستعرض جيشهم الذي كان يبلغ من العدد 600 ألف مقاتل (!!) أطل عليهم عوج بن عنق وقد حمل صخرة عملاقة تكفي لسحقهم جميعًا، وهَمّ بأن يلقيها عليهم!

هنا أرسل اللـه طيرًا نقروا الصخرة حتى نقبوها وأسقطوها على رأس العملاق فانحبس رأسه وعنقه بين كتفيه وهوى أرضًا، فوثب موسى نحوه وضربه بعصاه، وكان طول موسى عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع ومدى وثبته عشرة أذرع، فأصاب كعب «عوج» فقتله، وتعاون بنو إسرائيل على جز عنقه بأسلحتهم، وكان عملاقًا بحيث إنه لما سقط وقع جزء من جسده على نيل مصر (لاحظ أن الواقعة تجري في سيناء!) فصار الناس يعبرون عليه لمدة سنة.. ثم جرّوا جسده بعيدًا وكانوا يجرونه لمدة خمسة أشهر، في كل يوم يجره ألف ثور!

وهكذا كانت نهاية الجبار عوج بن عنق.

* * *

بينما يذكر بعض المفسرين ـ مثل الطبري والقرطبي ـ قصة عوج بن عنق في تفسيرهم للآيات الذاكرة للجبارين في الأرض المقدسة، نجد مفسرًا آخر هو ابن كثير يعارضها بشدة، لأسباب منطقية في سياق النص القرآني والحديث المصنف صحيحًا.

فمن ناحية النص القرآني يقول ابن كثير إنه من غير المعقول أن ينجو «عوج» من الطوفان وهو كافر، وقد دعا النبي نوح اللـه ألا يذر على الأرض من الكافرين أحدًا، ومن ناحية الحديث الصحيح يقول إن الرسول محمدًا قد قال إن اللـه قد خلق طول آدم ستين ذراعًا، وإن الناس في تناقص في الأحجام منذ ذلك، فكيف يبلغ عوج بن عنق هذا الطول الخارق؟

هذا تعليق إسماعيل بن كثير.

والحقيقة أن أسطورة عوج بن عنق تبدو فيها بعض التأثيرات الملحوظة من الأساطير القديمة والقصص التوراتي، فالقارئ لحوار موسى مع اللـه حين أوحى إليه أنه مهلك بني إسرائيل ومستبدل بهم شعبًا آخر، يلاحظ حالة

«الندّية» في حوار النبي مع الإله وجرأة الأول في مراجعة إلهه بل وتحذيره، وهو ما يتوافق مع التناول التوراتي لقصة النبي موسى، بينما لا يوافق التناول القرآني لها.

كذلك فإن فكرة العملاق الذي يسكن البرية ويفزع الناس تتكرر في أكثر من أسطورة قديمة، مثل ملحمة جلجامش العراقية وخروجه لقتل الشيطان المفزع الذي يعيش في الغابات ويفزع المسافرين.. والمواجهة بين هذا العملاق و«البطل» الأقل بنية وتغلّب هذا الأخير عليه، وقتله إياه بوسيلة تعتبر مهينة نراها في ملحمة الأوديسا الإغريقية إذ يتغلب أوديسوس بالحيلة على مسخ السايكلوب، ويتمكن من إرساله لحتفه.

والقتل من الكعب أو ما يمكن وصفه بـ«القتل المهين» ـ أي قتل بطل خارق من منطقة غير قاتلة بطبيعتها ـ يذكرنا كثيرًا بـ«كعب أخيل»، فالبطل الإغريقي أخيل المحصن من الأسلحة قتله سهم في كعب قدمه.

وثمة ملاحظة أخرى نجدها تتكرر في التراث القصصي العربي، إذ يحلو للراوي في تناول أية شخصية شريرة أن يدفعك دفعًا لكراهيتها والنفور منها، ليس للفعل الرئيسي المرتبط بالقصة وإنما لذاتها، فهو لا يحدثنا عن حالة الإفساد في الأرض التي بقي «عوج» يمارسها حتى يستحق لعنة نوح له ورفضه أن يركب السفينة (ولا أعرف كيف كان سيركبها أصلاً ولمَ يحتاج إلى ركوبها!) بل يجعلنا نكرهه من قبل ذلك بأن يذكر أمه باعتبارها ساحرة وزانية ومشوهة الهيئة... إلخ، فتصبح هذه مقدمة منطقية للمستمع أو القارئ ليتقبل فكرة عداوته بعد ذلك لموسى وبني إسرائيل ورغبته في قتلهم، وتسليط اللـه الطير عليه لصرعه، بصرف النظر عن السكوت عن مظاهر فساده وتجبره لمدة ثلاثة آلاف عام، هي عمره المزعوم.. وهذه من آليات الرواية الأسطورية/ الخرافية العربية، حيث قبح المظهر مرتبط بقبح الجوهر بالضرورة، ونجد هذا يتكرر في بعض القصص العربي كحكايات ألف ليلة وليلة مثلاً.

إن دراسة أسلوب صياغة شخصية وقصة عوج بن عنق تظهر بسهولة حالة «السذاجة» في صياغة بعض نماذج الأسطورة الإسلامية، من حيث التهويل والتكثيف والمبالغات، أو من حيث عدم الاهتمام بالسياق المنطقي للأحداث (فالسير المنطقي للأحداث ضروري حتى لو كنا نتحدث عن أسطورة) ما دام كل هذا يخدم الغرض منها فحسب.

XI

الـرحـلـة إلــى إرم ذات الـعـمـاد

يكفي أن يقرأ البعض في القرآن «إرم ذات العِماد التي لم يُخلَق مثلها في البلاد» ليُستَفَز فضوله لمعرفة كيف كانت تلك المدينة، التي تستحق أن يصفها القرآن بأنها «لم يُخلَق مثلها في البلاد».

ويكفي أن يشتعل هذا الفضول ليخرج علينا رواة الأساطير والأخبار، المتعيّشون من صيحات الانبهار ونظرات الاستغراب، بوصف تفصيلي عن تلك المدينة حتى لتحسبهم قد حضروا بناءها وعاشوا في شوارعها وبيوتها!

لكن هذه المرة تأتينا القصة ليس عبر ما رواه الأقدمون ولا ما كتبه السابقون، بل إن الراوي يقدم لنا بعض من زاروها من رجال عصره أو عصر قريب من عصره!

تبدأ القصة من مجلس الخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان، حيث يأتيه رجل من اليمن اسمه عبد اللـه بن قلابة حاملاً بعض الآثار، وقصة رحلة غريبة.

يقول عبد اللـه إنه كان يبحث عن إبل قد ضلت له في بعض نواحي مدينة عدن، فبينما هو يبحث وجد مدينة عظيمة حولها حصن وعليها أعلام طويلة، فحسِب أن بها من يمكن أن يدله على إبله، لكنه فوجئ بأنها خالية من السُكان.

دخل ابن قلابة من باب الحصن فوجد أمامه بابين يقول إنه لم ير في حجمهما، مصنوعين من خشب فاخر طيب الرائحة، ومزينين بنجوم من ياقوت أصفر وياقوت أحمر قد التمع وأضاء المكان.. دفع أحد البابين فوجد نفسه في مدينة بها قصور عظيمة معلقة على أعمدة من زبرجد وياقوت، وبكل قصر

منها غرف مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وقد فرشت أرضيات تلك القصور باللؤلؤ والزعفران والمِسك.

ولما لم ير أحدًا بالمدينة فزع، لكنه استجمع شجاعته وطاف بها فوجد بها قنوات للماء مصنوعة من فضة تروي أشجارًا مثمرة تحمل ثمارًا نضرة، فوقع في نفسه أنه قد دخل الجنة التي وصفها اللـه في القرآن، وحمل بعض اللآلئ والمسك وعاد إلى بلده وباعها بمال كثير، حتى اشتهر أمره فبلغ الخليفة الذي أمر والي صنعاء بإرساله إليه في دمشق.

وفي بلاط الخليفة، قص الرجل ما جرى له، فأراد معاوية التأكد فبعث يطلب كعب الأحبار يسأله عن تلك المدينة العجيبة.

حضر كعب إلى مجلس الخليفة، وهناك بدأ يقص قصتها التي قال عنها «واللـه إني كنت أظن أنني سأسأل عنها يومًا».

قال كعب الأحبار إن هذه المدينة هي إرم ذات العِماد، وقصتها أن «عادًا» كان له ابنان هما شداد وشديد، فلما مات ورثاه ومَلَكا وتجبرا وقهرا كل البلاد ودخل كل الملوك في طاعتهما، ثم مات شديد وبقي شداد وحده ملكًا، وكان مولعًا بالقراءة في الكتب القديمة، فلما قرأ صفة الجنة في بعض تلك الكتب تكبّر على اللـه، وأراد أن يصنع في الأرض كمثل جنة اللـه في السماء.

فجمع مئة من قادته، لكل منهم ألف من الأعوان، وقال لهم «انطلقوا إلى أطيب وأوسع بقعة في الأرض واعملوا لي فيها مدينة من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ولؤلؤ» وأمرهم أن تكون قصور تلك المدينة مرفوعة على عِماد من زبرجد وياقوت، وأن يغرسوا في المدينة أصناف الثمار والأشجار كلها، وأن يُجروا فيها أنهارًا «فإني أرى هذه صفة الجنة وإني أحب أن أتخذ مثلها في الدنيا وأتعجل سكناها».

فسألوه: وكيف نجمع كل هذا القدر العظيم من المعادن؟ فبعث إلى الملوك الذين في طاعته ـ وكانوا 260 ملكًا ـ أن يجمع كل منهم كل ما لديه من تلك المعادن ويرسلها إليه ليبني جنته، فقضوا عشر سنين يجمعونها ثم حملوها إليه.

في أثناء ذلك كان رجال الملك يطوفون بالبلاد ليختاروا البقعة المناسبة لتشييد المدينة، فأعجبتهم بقعة من صحراء اليمن مستوية معتدلة بها عيون ماء جارية، فوضعوا أساسات المدينة وبدأوا بناءها.

وأقاموا في بنائها 300 سنة (على حد قول الراوي فإن شداد بن عاد عاش 700 سنة!).

ثم بعد فراغهم من بناء المدينة أمرهم شداد أن يقيموا بها ألف قصر، على كل قصر ألف علم، وجمع ألفًا من وزرائه وأمرهم بالانتقال للسكن بالمدينة، فتجهزوا لذلك واستغرق جهازهم 20 سنة (يبدو أن هؤلاء القوم كانوا يقيسون الزمن بالعقود وليس بالسنوات!) ثم تجهز الملك وتحركوا جميعًا في ركب عظيم كل بأهله ليسكنوها، فلما كانوا على مسيرة يوم وليلة منها أرسل اللـه عليهم صيحة من السماء فأهلكتهم، ولم يدخلوها أبدًا فبقيت خاوية.

ويكمل كعب الأحبار قائلاً إنه يرى في الكتب أن رجلاً في زمان معاوية سيدخلها، بل ويصف له هيئة الرجل اليمني سالف الذكر ويشير إليه.

هنا يثني معاوية على عِلم كعب، فيجيبه قائلاً «يا أمير المؤمنين والذي نفس كعب بيده ما خلق اللـه في الأرض شيئًا إلا وقد فسره في التوراة».

* * *

وثمة رواية أخرى عن قصة العثور على قبر شداد بن عاد، فيقال إن رجلاً من حضرموت ـ باليمن ـ اسمه «بسطام» كان يسمع عن مغارة بها القبر المذكور، فبينما هو يسمر مع قومه إذ ذكروها فقال لهم «لا أنتهي حتى أدخلها».

فوافقه شاب حديث السن فجهزا شمعًا ومعدات وطعامًا وشرابًا وتوجها إلى الجبل حيث المغارة، فصعدا حتى إذا بلغاها ـ وكانت مطلة على البحر ـ شمرا ثيابهما وذكرا اللـه ودخلا، فوجداها عرضها عشرون ذراعًا وارتفاعها خمسون ذراعًا، ووجدا فيها طريقًا ممهدًا أفضى بهما إلى سلم هابط عرضه عشرون ذراعًا وسُمك الدرجة منه عشرة أذرع، فتعاونا على نزوله وكان مقداره مئة درجة، حتى بلغا قاعة واسعة بها سرير عظيم الحجم عليه جثمان رجل عملاق راقد على ظهره بهيئة النائم، يرتدي سبعين حلة مزينة بخيوط الذهب والفضة، وفوق رأسه لوح كبير من ذهب عليه كتابة بلغة قوم عاد.

فلما تحسسا الحُلل التي يرتديها الجثمان تحللت وذابت وبقيت خيوط الذهب والفضة، التي بلغ وزنها 100 رطل، واللوح الذهبي.

فباتا ليلتهما ثم خرجا من فتحة في حائط القاعة مفضية إلى البحر، واقتسما الغنيمة فوقع اللوح في نصيب بسطام، فالتمس رجلاً يفهم لغة عاد فترجم له ما في اللوح فوجد فيه هذا القول:

«اعتبر بي أيها المغرور بالعمر المديد
أنا شداد بن عاد صاحب الحصن العميد
وأخوِ القوة والبأس والمُلك الحشيد

دان أهل الأرض طرًا لي من خوف ووعيد
وملكت الشرق والغرب بسلطان شديد
وبفضل المُلك والعدة فيه والعديد
جاءنا هود وكنا في ضلال قبل هود
فدعانا لو قبلنا كان بالأمر الرشيد
فعصيناه ونادينا الأهل من محيد
فأتتنا صيحة تهوي من الأفق البعيد
فتوافينا كزرع وسط بيداء حصيد»

(ترجمة بالقافية والوزن.. هذا باهر!)

فلما سأل بسطام علماء اليمن كيف نُقِل جثمان شداد بن عاد إلى هذا القبر، أجابوه بأن ابنه مزيد بن شداد لم يكن في رَكب أبيه عندما داهمته الصيحة، فلما بلغه ووجد قومه هالكين نقل جثمان أبيه لهذا المكان، وعلق عليه اللوح الذهبي بما فيه من كتابة.

* * *

نحن أمام نوع جديد من الأساطير، فهذه المرة نجد خطين زمنيين، الأول فيما يمكن وصفه بـ«الزمن المعلوم»، أي في عهد لنا ألفة به وإلمام شبه كامل بتفاصيله، وأعني عهد معاوية.. والآخر في «الزمن المجهول» زمن قوم عاد.. بل وثمة حضور مباشر لشخصية كعب الأحبار بعد أن كان لا يظهر منه سوى قول منسوب له، أما هذه المرة فهو حاضر بنفسه في مجلس الخليفة ويقول له «جرى كذا وكذا.. وتفسيره كذا وكذا»، ولدينا كذلك «شهود عيان» على المدينة وقبر صاحبها، رأى أحدهم إرم ذات العماد ورأى الآخران قبر شداد بن عاد، وعاد كل منهم ببعض آثار هؤلاء القوم.

وكالعادة في سياق الحديث عن «الملوك» و«الثروات» نجد عنصر المبالغة في الأرقام والأعداد، سواء عدد الوزراء أو عدد الملوك الخاضعون للملك شداد، أو قدر الثروات المحمولة لبناء المدينة، أو عدد سنوات العمل في المدينة، وعمر شداد بن عاد الذي لا يعتبر مستغربًا بالنسبة لقصص الأقدمين التي نقرأ عُمر المرء فيها بالقرون لا بالسنوات؛ إذ يسود معتقد بأن الناس كانوا يعمرون بالقرون قديمًا، ثم تناقصت أعمارهم حتى صارت تُحسَب بالعقود.

وتلعب القصة على تيمة محببة إلى نفوس رواة قصص الغرائب والأساطير، وهي «الرجل الذي ضل طريقه فعثر على مدينة لها سر مثير وبها ثروات باهرة».. والقارئ في ألف ليلة وليلة يرى هذا النموذج يتكرر كثيرًا، مع الإمعان

في وصف القصور الذهبية والغرف المرصعة بالجواهر والبساتين المزهرة... إلخ، فهذه الأشياء تبهر البسطاء وتجعلهم يفغرون أفواههم انبهارًا، والانبهار ـ كما قلت من قبل ـ هو رزق كثير من الرواة.

وبالنسبة لشخصية شداد بن عاد، فإن الراوي قد حرص على المبالغة في إظهار قوة سطوته وثراءه ورسوخ مُلكه، فشداد يمثل قائد قوم عاد الذين ضرب اللـه بهم المثل في إهلاك القوم الكافرين ولو كانوا أقوياء، فكان لا بد من التركيز والتكثيف في إظهار قوته وعظمة سلطانه، لنصل في النهاية للمغزى أو الحكمة أو الدرس المستفاد من القصة، وهو: «هذا الملك العظيم المسيطر على الأرض أهلكته صيحة من السماء بعثها اللـه عليه، فاتعظوا»، وهو نموذج يتكرر في تيمات «الملك الظالم الكافر باللـه الذي أهلكه اللـه»، فهو يُقَدَّم دائمًا مصحوبًا بالمبالغات في وصف ملكه وسطوته ليليق بدور «الشرير» في القصة.

بشكل عام، فإن موضوع قوم عاد ومدينتهم من الموضوعات المثيرة للفضول، ولم يتوقف عند الأساطير فتعداها وشغل المتخصصين في علوم التاريخ والآثار والأجناس وغيرهم، وكما أثار الأساطير قديمًا فإنه حديثًا قد أثار النظريات، العلمية منها و«مدعية العلمية»، كذلك الذي ادعى أن قوم عاد عاشوا في مصر وبنوا الأهرام، أو الذي اختلق صورًا لهياكل عظمية عملاقة يفترض أنها لهم.. على أية حال فإن هؤلاء القوم يبقون لغزًا استحق له مكانًا مميزًا في تراث القَصص الإسلامي، الأسطوري منه والديني.

XII

بلوقيا.. الباحث عن الرسول محمد قبل بعثته بقرون

هي قصة لا أعرف حقًا من أين أتى بها راويها، من فرط غرابتها وما بها من شطحات ـ حتى بالنسبة لأسطورة ـ ولكونها طويلة نوعًا ومزدحمة بالتفاصيل قياسًا على غيرها من الأساطير.

بطل القصة اسمه «بلوقيا»، وهو ابن لرجل واسع العلم والثروة، وفي نفس الوقت إمام لبني إسرائيل، اسمه «أوشيا».. وكان هذا بعد عهد النبي والملك سليمان بن داوود.

«أوشيا» هذا كان قد عرف خبر بعث الرسول محمد، وعرف صفته، ولكنه كتم ذلك عن قومه، ووضع الأوراق التي فيها ذلك في صندوق خشبي وضعه بدوره في تابوت من حديد مغلق بقفل ثقيل.

وبعد موت «أوشيا» وتولي «بلوقيا» إمامة بني إسرائيل من بعده، عثر الابن على التابوت، فتحايل حتى فتحه وفتح الصندوق فوجد فيه تلك الأوراق فقرأها وعلم ما فيها، فقال «لقد خسر أبي آخرته بما كتم من الحق» وأخبر قومه بما جرى، فقالوا له «لولا مكانك فينا يا لوقيا لنبشنا قبر أبيك وأحرقناه بالنار».

واستأذن «بلوقيا» أمه في السفر للبحث عن مبعث الرسول محمد ليؤمن به إذا بُعِثَ، وكانوا آنذاك في مصر، وقرر السفر إلى الشام لعله يقع على خبر مما يريد.

وبينما هو يطوف ببلاد الشام، بلغ جزيرة من جزر البحر (جزيرة في الشام؟!) فوجد بها حيّات عملاقة بأحجام الإبل يقلن «لا إله إلا اللـه محمد رسول اللـه»، فسألنه «من أنت وما اسمك؟» فقال «أنا بلوقيا من بني إسرائيل من ولد آدم» فقلن «نعرف آدم ولا نعرف إسرائيل»، فسألهن من هن

ومن أين أتين، فأجبن «نحن حيّات جهنم نعذب الكفار يوم القيامة، وهي تلقينا للأرض مرتين في السنة، مرة في الصيف لشدة حرها ومرة في الشتاء لشدة بردها، وليس فيها باب أو دركة إلا مكتوب عليها لا إله إلا اللـه محمد رسول اللـه، ومن ذلك عرفنا محمدًا صلى اللـه عليه وسلم».

فسألهن: هل في جهنم حيات أكبر وأعظم حجما؟ فأجبنه: في جهنم حيات تدخل إحدانا في أنفها وتخرج من فيها ولا تشعر بها لحجمها. فسلم على الحيّات وأكمل طريقه.

وبينما هو يسير وجد حيات أضخم حجمًا تقودهن حية صفراء صغيرة، فسألها عن نفسها فأجابته أنها الموكلة بالحيات واسمها «تمليخا» ولولاها لقتلن بني آدم في يوم واحد، ثم سألته عن أمره فأخبرها، فطلبت منه أنه إذا لقي الرسول محمد يقرئه منها السلام.

وبلغ «بلوقيا» بيت المقدس فوجد بها حَبرًا جليلاً اسمه «عفّان الخير» فأخبره بما خرج لأجله، فقال له الحَبر «إن بيننا وبين مبعث محمد قرون، ولكن أرني موضع الحية تمليخا لأصيدها، لعلنا نبلغ من ذلك مُلكًا عظيمًا وحياة طيبة وعمرًا نلحق فيه بمبعث محمد فنؤمن به» فخرجا إلى حيث قابل «بلوقيا» الحية، وأعد عفّان تابوتًا من حديد به قدحان من فضة، بأحدهما خمر وبالآخر لبن، فجاءت تمليخا ودخلت إلى التابوت وشربت حتى سكرت ونامت، فأقفل عليها عفان التابوت وحمله معه، فكان لا يمر بشجر أو نبات إلا كلمه ونطق له (ويبدو أنها من القدرات التي تمنحها السيطرة على الحية)، حتى قالت له شجرة «من يأخذني ويدقني ويعصرني يستخرج مني دهانًا لو دهن به قدميه لسار على البحار السبعة ولم يغرق»، ففعل ذلك ودهن هو و«بلوقيا» أقدامهما، ثم فتحا التابوت وأخرجا الحية فطارت للسماء وهي تقول «ما أجرأكم على اللـه يا بني آدم ولن تصلوا لما تريدون!».

فأكملا طريقهما، وسارا على ماء البحر فعبرا البحر الأول ثم الثاني، حتى بلغا جبلاً فوجدا فيه كهفًا به سرير من ذهب، وراقد عليه جثمان شاب ويداه على صدره وبطنه وبيده اليُمنى خاتم.. وكان هذا جثمان النبي والملك سليمان، وبالخاتم المصنوع من الذهب والفضة والياقوت الأحمر أسطر مكتوب فيها اسم اللـه الأعظم.. وكان عفان الخير يريد انتزاعه.

ولكن، على رأس السرير كان يقف تنين ضخم، فكانا كلما اقتربا من الجثمان نفث النار وقال لعفان «ما أجرأك على ربك!»

وخاف بلوقيا من نار التنين، فشجعه عفان وقال له «إن اللـه معنا ومعنا اسمه الأعظم، أنت اقرأ التوراة وأنا أحاول نزع الخاتم»، فكان كلما نفث التنين النار ذكر «بلوقيا» اسم اللـه فلم تحرقه النار، حتى إذا دنا عفان من

خاتم سليمان باغتهما المَلَك جبريل هابطًا من السماء وهو يصيح بهما صيحة ارتجت لها الأرض والجبال، فسقط الرجلان على وجهيهما وأصابت النار عفان فأحرقته وقتلته.

أما «بلوقيا» فقد استمر يذكر اسم اللـه فلم يصبه شيء، فظهر له جبريل في هيئة بشرية وهو يقول «يا ابن آدم ما أجرأك على اللـه!» فسأله الفتى «من أنت يرحمك اللـه؟» فأجابه «أنا جبريل أمين اللـه رب العالمين» فرد «بلوقيا» عليه «وأنا واللـه ما أردت سوءًا، إنما خرجت حبًا في محمد صلى اللـه عليه وسلم ورغبة في اتباعه»، فقال له جبريل «فبهذا نجوت»، ثم تركه وعاد صاعدًا.

فخرج «بلوقيا» من الكهف وسار على الماء ولكنه ضل طريقه، فسار يقطع البحار حتى بلغ البحر السابع، فوجد جزيرة من ذهب حشيش أرضها الزعفران وبها الشجر والثمار، فتناول من ثمار بعض شجرها، فقالت له الشجرة «يا خاطئ يا ابن الخاطئ لا تأخذ مني شيئًا» فاستغرب ذلك.

وفوجئ بقوم يتقاتلون بالسيوف، حتى إذا ما تغلب بعضهم ورأوه ينظر إليهم وثبوا إليه وحاصروه وقد استلوا أسلحتهم، فذكر اسم اللـه، فأغمدوا سيوفهم وأمنوه وسألوه عن اسمه.

فقال لهم «أنا بلوقيا من بني إسرائيل من ولد آدم» فأجابوه «نعرف آدم ولا نعرف إسرائيل، فما جاء بك إلى هنا؟» فأخبرهم عن قصته فقالوا له إنهم من الجن المؤمنين، وإنهم كانوا مع ملائكة السماء ثم هبطوا للأرض؛ فهم يغزون ويجاهدون ضد الجن الكافر إلى يوم القيامة، وأخبروه أنهم لا يموتون إلى يوم القيامة، ثم عرض عليه ملكهم «صخر» أن يبقى معهم.

فسأل «بلوقيا» الملك عن كيف خلق اللـه الجن، فأجابه أن اللـه جعل لجهنم سبعة أبواب وسبعة ألسنة، وخلق منها خلقين، أحدهما في السماء اسمه جبليت وهو على هيئة الأسد وذنبه كذنب الحية، والآخر في الأرض اسمه تمليت وهو على هيئة الذئب وذنبه كذنب العقرب، وجعل حجم كل منهما مقدار مسيرة 500 سنة، ثم أمرهما أن ينتفضا في النار، فسقطت حية من ذنب الأسد وسقط عقرب من ذنب الذئب، فحيّات وعقارب النار منهما.

ثم أمر اللـه الأسد ـ وكان ذكرًا ـ أن ينكح الذئب ـ وكانت أنثى ـ فأنجبت منه الذئب سبعة ذكور وسبع إناث، فأمر اللـه الذكور أن يتزوجوا الإناث، فأطاعوا عدا ذكر واحد هو إبليس واسمه الحارث وكنيته أبو مُرّة، فلعنه اللـه فهذا أول خلق الجان، فكان من الستة الذين أطاعوا خلق الجن، وكان من إبليس الشياطين (نلاحظ هنا قصة جديدة لإبليس مناقضة تمامًا لكل القصص السابقة، أسطورية وقرآنية).

ثم علم الملك صخر أن «بلوقيا» راغب في استكمال رحلته، فقال له «إن دوابنا لا تطيع البشر، فأنا أغمي عيني فرسي هذا فتركبه وتنطلق به حتى آخر مملكتي، فستلقى هناك شابا وشيخا ومشايخ معهما، فدع لهم الفرس وسر في حفظ اللـه.

فامتطى «بلوقيا» الفرس وانطلق به لمدة نصف يوم حتى بلغ القوم الذين عينهم له صخر، فسلمهم الفرس فسألوه «كم قطعت؟» قال «قطعت كذا من المسافة» فقالوا له «لقد أحس فرسنا بثقلك ومكانك فانطلق بك بين السماء والأرض، وقطع بك مسافة تعدل سير 120 سنة حتى جاوز بك جبل قاف (راجع الفصل الأول حيث جبل قاف هو حدود الدنيا)، فودعهم «بلوقيا» وسار حتى وجد مَلكًا قابضا بإحدى يديه على المشرق وبالأخرى على المغرب وهو يقول «لا إله إلا اللـه محمد رسول اللـه»، فسأله «بلوقيا» عن شأنه فقال له «أنا مَلك اسمي يوحاييل، وأنا موكل بظلمة الليل وضوء النهار، ففي يدي اليمنى الضوء وفي اليسرى الظلمة، فأنا أفلتهما رويدًا ليتحدد الليل من النهار وتختلف بذلك ساعاته في الصيف عن الشتاء»، فسلم عليه «بلوقيا» وانطلق حتى وجد مَلكًا واضعًا يده اليمنى بالسماء والأخرى بالأرض وهو يقول «لا إله إلا اللـه محمد رسول اللـه»، فلما سأله «بلوقيا» عن اسمه أجابه «أنا ميخائيل (ميكائيل) أحبس الريح حتى لا تعصف بالناس وأحبس الماء وإلا هاجت البحار وأغرقت بني آدم»، فسلم عليه وأكمل طريقه.

فوجد أربعة ملائكة، أحدهم له وجه ثور وهو يدعو اللـه للبهائم، والثاني له وجه أسد وهو يدعو للسباع، والثالث له وجه نسر وهو يدعو للطيور، والرابع له وجه إنسان وهو يدعو للمسلمين، وكلهم يدعو بالرحمة والرزق وأن تلحقهم شفاعة الرسول محمد.. فتركهم ومضى إلى طريقه (لاحظ التشابه مع هيئات ملائكة العرش).

وبلغ «بلوقيا» جبل قاف، فوجده من ياقوتة خضراء محيطا بالدنيا وعنده مَلَك يمسك وترًا متصلاً بعروق داخل الجبل، واسم المَلَك حزقيائيل، فلما تعارفا سأله «بلوقيا» عن ذلك الوتر وتلك العروق، فأجابه أنه موكل بجبل قاف، وأن اللـه إذا أراد أن يوسع الأرض على الناس أمره ففك عقد الوتر وأرخاه، وإذا أراد أن يضيقها عليهم أمره فعقده، وإذا أراد أن يذكرهم بقدرته ويثير خشيتهم أمره فيحرك عروق جبل قاف فتتزلزل الأرض.

فسأله عما وراء جبل قاف، فأجابه المَلَك أن وراءه أربعين دنيا، في كل دنيا أربعمئة ألف باب، في كل باب أربعمئة ألف دنيا مثل الدنيا التي جاء منها «بلوقيا»، وأنها ليست فيها ظُلمة بل كلها نور، وأرضها ذهب، وسكانها الملائكة

لا يعرفون آدم ولا إبليس ولا جهنم، ولا يقولون سوى «لا إله إلا اللـه محمد رسول اللـه» بهذا أُمِروا فهم يقولونها إلى يوم القيامة.

فسأله عمّا ورا ذلك فقال له «حجاب في حجاب لا يعلمه إلا اللـه»، ثم أخبره عن أن الدنيا بين قرني ثور بين قرنيه مسيرة ثلاثين ألف سنة، وأن الأراضي سبع والبحار سبعة وأن جهنم في الأرض السابعة.

وأكمل «بلوقيا» مسيره حتى بلغ حجابًا طرفه الأعلى في السماء وأسفله للماء، وعليه باب مقفل والباب مختوم بختم من نور، وعليه مَلَكان أحدهما له رأس ثور وللآخر رأس كبش يقولان «لا إله إلا اللـه محمد رسول اللـه»، فلما سلم عليهما وعرفهما أنه من بني إسرائيل من ولد آدم، قالا «لا نعرف آدم ولا نعرف إسرائيل» فسألهما «وكيف تعرفان محمدًا وهو من ولد آدم؟» أجابا «هكذا خُلِقنا وبهذا أُمِرنا»، فطلب منهما فتح الباب ليمر، فقالا إنهما لا يحسنان فتحه وإنه لا يفتحه إلا جبريل.. فدعا «بلوقيا» ربه فأمر اللـه جبريل أن ينزل ويفتح الباب، ففتحه وهو يقول لـ«بلوقيا» بدوره «يا ابن آدم ما أجرأك على اللـه».

واجتاز الباب فوجد وراءه بحرين، أحدهما مالح والآخر عذب وبينهما حاجز، وفي البحر المالح جبل من ذهب وفي العذب جبل من فضة، وعليه ملائكة لهم هيئات النمل، قالوا له إن هذين البحرين هما مصدر كل ماء عذب ومالح، وإن مصدرهما أسفل العرش الإلهي، وإن جبل الذهب هو مصدر كل ذهب في الدنيا، وجبل الفضة مصدر كل فضة فيها.

فمضى في طريقه حتى رأى بحرًا به حيتان وحوت عظيم يقضي بينها، فسلم عليه فسأله الحوت عما يطلب، فقال إنه يريد اللحاق بمبعث النبي محمد، فطلب منه الحوت أنه إن لقيه ـ النبي ـ يقرئه منه السلام، وأعطاه قرصًا أبيض قال له «إن أكلت هذا تسير أربعين سنة لا تنام ولا تعطش ولا تجوع ولا تتعب»، فأكل منه وسلّم على الحوت ومضى.

وبينما هو يمشي لقي شابًا جميل الهيئة يجري على الماء، فسأله «بلوقيا»: «من أنت؟» فأجابه «سل الذي خلفي»، فسار يومًا وليلة فرأى شابًا له نفس الهيئة يجري على الماء فسأله «من أنت؟» فقال له «سل الذي خلفي!» ثم بعد يوم وليلة رأى شابًا ثالثًا على نفس الحال فاستوقفه قائلاً «أنشدك اللـه أن تجيبني» ثم سأله «من أنتم؟» فأجابه «الأول إسرافيل صاحب الصور (المَلَك الذي ينفخ الصور يوم القيامة)، والثاني ميكائيل صاحب الرزق والمطر، وأنا جبريل» (وهذا غريب لأنه من المفترض أنه قد قابل جبريل مرتين)، فسأله «بلوقيا»: «ولِم تركضون؟» فأجابه «حية من حيّات البحر آذت الناس فأرسلنا اللـه لننقذهم منها ونحملها إلى جهنم ليعذب بها الكافرين، وهي طولها مسيرة

30 سنة وعرضها مسيرة 20 سنة» فسأله «وهل في جهنم أكبر منها؟» فأجابه «في جهنم حيات لو دخلت تلك الحية في أنفها ما أحست بها من عظم حجمها».. فسلّم عليه وأكمل طريقه.

ثم بلغ جزيرة عليها قبران بينهما غلام صغير، فسأله عن أمره فاجاب الغلام «اسمي صالح، وهذا قبر أبي وهذا قبر أمي، وكانا صالحين، فأنا هنا أبقى بينهما حتى أموت فأدفن معهما»، فسلّم عليه ومضى في مسيره، حتى بلغ جزيرة فوقها شجرة عليها طائر رأسه من ذهب وعيناه من ياقوت ومنقاره من لؤلؤ، ويداه من زعفران وقائمتاه من زمرد، وتحت الشجرة مائدة بها طعام طيب، فسأل «بلوقيا» الطائر عن أمره فأجابه «أنا من طيور الجنة وقد بعثني اللـه بهذه المائدة إلى آدم حين هبط إلى الأرض، وقد كنت حين لقي حواء (يعني بعد هبوطهما وافتراقهما ثم لقائهما) وأباح له اللـه الأكل منها، وأنا هنا منذ ذلك الوقت، فكل غريب وعابر سبيل من عباد اللـه الصالحين يمر بي يأكل منها، وأنا أمين عليها إلى يوم القيامة، وهذا من طعام الجنة لا يفسد ولا ينقص»، فاستأذنه «بلوقيا» أن يأكل منها فأذن له، فأكل ثم سأله «ومعك أحد هنا؟» فأجاب الطائر «معي أبو العباس وهو الخضر عليه السلام».

فلما ذكر اسم الخضر وجده «بلوقيا» مقبلاً عليهما في ثياب بيضاء لا يطأ موضعًا إلا نبت منه الحشيش الأخضر، فسلم على «بلوقيا» وسأله عن حاله فأجابه «قد طالت غيبتي وأريد الرجوع إلى أمي»، فقال الخضر «بينك وبين أمك مسيرة 500 عام وأنا أردك إليها في مسيرة 500 شهر»، فقال الطائر «فأنا أردك إليها في مسيرة 500 يوم» فقال الخضر «أنا أردك إليها في ساعة واحدة»، ثم قال له «أغمض عينيك» فأغمضهما ثم فتحهما فإذا هو في داره أمام أمه، فسألها «من جاء بي؟» فقالت «طير أبيض يطير بين السماء والأرض»، فقص عليها ما كان ودوّنه وأخبر به بني إسرائيل فكتبوه وتوارثوه.

وهنا تنتهي قصة رحلة «بلوقيا».

* * *

هل شعر القارئ بالإرهاق ودوار الرأس من كل تلك التفاصيل والشطحات؟ ماذا لو عرف أن هذه القصة كما أنها موجودة في كتاب مثل «عرائس المجالس» للثعلبي النيسابوري، باعتبارها من قصص الأنبياء والصالحين التي يقدمها صاحب الكتاب باعتبارها حقيقية، فإنها كذلك موجودة في كتاب «ألف ليلة وليلة» باعتبارها محض خيال؟ أي أنها تمثل حالة فريدة بين الأساطير الإسلامية، إذ إنها نُشِرَت أولا باعتبارها قصة حقيقية منقولة عن كتب بني

إسرائيل (وتُنسَب روايتها الأولى للصحابي عبد اللـه بن سلام وكان يهوديًا ثم أسلم) ثم بعد فترة أدرك الناس حقيقتها، فوضعوها حيث مكانها الصحيح بين القصص الخرافية والأساطير.

تجمع قصة «بلوقيا» بين تيمات مختلفة، فثمة تيمة المسافر بحثًا عن حقيقة ما أو سر مقدس، وتيمة «المعراج» إلى العالم العلوي وفيها يبدو جليًا التأثر بفكرة المعراج إلى السماء، سواء كان ذلك الإسلامي في معراج الرسول محمد أو نموذج صعود إدريس/أخنوخ للسماء وزيارته السماوات السبع والجنة والنار، وهي ـ القصة ـ تحمل رسالة واضحة جدًا ومغزى مباشرًا هو الدفاع عن فكرة أن «اليهود يعرفون أن رسالة محمد حق ولكنهم يتنكرون لها»، فنحن هنا أمام بطل يهودي قرأ عن بعثة الرسول محمد في كتب أبيه، ثم سافر طلبًا للحاق بالمبعث، فلقيه الحَبر عفان الخير وأكد له المعلومة بل وحدد زمانها ولو بالتقريب، وتلقى «بلوقيا» تأكيدات مماثلة من حيّات الجنة وملائكة السماء ومن الجن والحيتان السماوية وغيرها ممن التقى في رحلته، ثم عاد ودوّن ذلك وأخبر به قومه.. لا نحتاج إلى كثير تدقيق لندرك أن واضع هذه القصة ومؤلفها الأول كان يقصد جيدًا هدفه، وأن مغزاها لم يأتِ اعتباطيًا ولا متروكًا لوجهة نظر المتلقي، وبخاصة أن نهايتها جاءت مبتورة باستخدام تقنية «الإله من الآلة»، وهو تعبير يعني تَدَخُّل طرف أعلى فجأة عندما تتعقد الأمور لينهيها بشكل قاطع، غالبًا باستخدام قوة خارقة.. هذا ما جرى، فبينما نحن مع «بلوقيا» في رحلته وتنقلاته، نتساءل عمّا إذا كان سيجد ما يحقق له رغبته في اللحاق بمبعث الرسول محمد، إذ فجأة يظهر الخضر ويعلن «بلوقيا» أنه قد اشتاق لأمه، فينقله الخضر إلى داره في ساعة وتنتهي الحكاية.. هل أدرك الراوي أن قصته قد حققت مغزاها فلا داعي للاستمرار بجذب خيوطها إذن ولننهها فورًا؟

والقصة كذلك بها تلميح آخر إلى السعي للمعرفة «المحرمة» أو «المحفوفة بالتحريم»، فكلما توغل «بلوقيا» في رحلته قيل له «ما أجرأك على اللـه»، ورغم ذلك فإنه يمهد له الطريق، وتُفتَح له الأبواب، بل وينجو من نار التنين ويقول له جبريل إنه نجا لرغبته في البحث عن حقيقة الرسول محمد والإيمان به، فهل يمثل هذا التناقض ترجمة للصراع الداخلي لدى البعض بين جرأة الفكر وإطلاق العنان له من ناحية، وتقييده واعتبار أنه اجتراء على المحرمات من ناحية أخرى؟

هل تحمل القصة رسالة مضمونها هو «البحث عن الحقيقة، فيما وراء الظواهر، جرأة ومخاطرة... ولكن لا بأس بذلك لو كان الحب الإلهي هو دافعك»؟

هل ثمة تَدَخُل صوفي ما في صياغة هذه القصة؟ أنها تمتلئ بالرمزيات المتكررة في القَصص الصوفي، كالسير على الماء والتحرز باسم اللـه من النار، وانقطاع بعض الخلق للتعبد مع المعرفة المحدودة الكافية بالنسبة لهم ما دامت معرفة إيمانية «هكذا خُلِقنا وهكذا أُمِرنا»، والقوم الذين يعيشون في نعيم وهم لا يعرفون آدم ولا إبليس، أي أنهم لا يعرفون خيرًا ولا شرًا، وقد انقطعوا للتسبيح، ثم ـ وهذا الأوضح ـ الظهور الختامي المفاجئ للخضر وإظهاره «كرامة» أهل الخطوة في نقل «بلوقيا» إلى أهله الذين هم على مسيرة 500 سنة، في ساعة واحدة على ظهر طيور بيض.

ولي ملاحظة أخيرة، فهذه القصة تحمل «بصمات» أكثر من توجه فكري، فبين رغبة مبطنة في إدانة اليهود ـ أو أهل الكتاب عامة ـ لإنكارهم رسالة محمد، وهي رغبة تنم عن حالة تعصب أو تشدد ما دامت بلغت حد تلفيق قصة كهذه، وبين معانٍ صوفية رقيقة ـ ونحن نعلم أن المتصوفين أقل تشددًا من غيرهم مع غير المسلمين ـ أخمن أن قصة رحلة «بلوقيا» قد تشكلت على مراحل، ورويَت بطرق مختلفة حتى وصلت إلينا بتلك الصياغة المجمعة.. هو مجرد تخمين أو استنتاج.. وعمومًا فهذه حال أغلب الأساطير أو السير الشعبية.

هي إذن ليست مجرد قصة مسلية بها من المبالغات ما بها، بل هي عمل شديد العمق له أبعاد مختلفة شديد الثراء بالمعاني والرموز، كان يستحق هذا التناول رغم عدم شهرته بين الأساطير الإسلامية.

XIII

رحـلـة ذي الـقـرنـيـن

قال البعض إنه الإسكندر المقدوني، والبعض أصّر على أنه أحد ملوك اليمن القدامى، وقال غيرهم إنه قورش الكبير مؤسس دولة الفُرس، بل وجعله البعض مَلكًا من الملائكة فقالوا على لسان عمر بن الخطاب إنه حين سمع رجلاً ينادي الآخر «يا ذا القرنين» قال «ما اكتفيتم من أسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة؟»، وآخرون لم يذكروا أصله واكتفوا بلقبه الذي اشتهر به: ذو القرنين.

حتى لقبه هذا اختلفوا في مصدره، فذكر بعضهم أنه كان له قرنان من ذهب على جانبي رأسه، وبعضٌ قالوا بل كانت له ضفيرتان طويلتان كالقرنين، وثالث عللـه بأنه قد عاش قرنين من الزمان، أو أنه قد بلغ في رحلته قَرني الشمس، أي مشرقها ومغربها، وآخر قال بل دعا قومه لعبادة اللـه مرتين، ففي كلتا المرتين ضربوه على جانب من رأسه حيث يكون قرن الكبش أو الثور.

في كتب المؤرخين العرب يقول الطبري «الإسكندر ذو القرنين» وكذلك فعل ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ»، بينما تحفظ المسعودي في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» في أن يقرر إن كان ذو القرنين هو الإسكندر أم لا، وابن خلدون ذكر غزوات الإسكندر ولم يقرنه بذي القرنين، أما ابن كثير والبيروني فقد نفيا أن يكون الاثنان رجلاً واحدًا.

بقيت لدينا قصتان عنه وعن رحلته، إحداهما لوهب بن منبه في كتابه «التيجان في ملوك حِميَر»، والأخرى في كتاب الثعلبي النيسابوري «عرائس المجالس»، وهما اللتان تستحقان بحق أن نضمهما للأساطير.

* * *

رواية وهب بن منبه تقول إنه كان أحد ملوك دولة حِميَر باليمن القديم، وهو يذكر اسمه كاملاً، فيقول إنه الصعب ذو القرنين بن الحارث الرائش ذي سرائد بن عمرو الهمال ذي مناح بن عاد ذي شدد بن عامر بن الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود عليه السلام بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

وفقًا لرواية ابن منبه فإن «الصعب» كان ملكًا متجبرًا فاق من سبقوه في التجبر والسطوة.. كان له عرش من ذهب مرصع بالدر ولياقوت والزمرد والزبرجد، وكانت ثيابه منسوجة بالذهب مزينة بالدر والياقوت، فرأى يومًا في نومه أنه صعد جبلا شاهقًا مطلاً على جهنم وفيها قوم تتخطفهم النيران، فسأل «من هؤلاء؟» فقيل له «هؤلاء الجبابرة، فاخلع يا صعب رداء الكِبر وتواضع للـه يعطك عزًا أعظم من عزك، وهيبة أجل من هيبتك».

فلما استيقظ ظهر للناس ـ وكان يحتجب عنهم ـ وأظهر التواضع وأخرج عرشه وثيابه، فمنحهما بما فيهما من ثروات لشعبه، وقال «أيها الناس إن اللـه جبار يبغض الجبارين، قهر بالموت من ادعى أنه نده، وأذل بالمُلك من ادّعى أنه ضده».

وفي الليلة الثانية رأى في منامه أنه يصعد سلمًا إلى السماء، حتى بلغها فسل سيفه وعلقه في نجم الثريا، ثم أخذ بيده اليمنى الشمس وباليسرى القمر، وسار بهما وقد تبعته الكواكب والنجوم.

فلما استيقظ خرج من قصره وهام على وجهه بين الناس وقد استغربوه.

وفي الليلة الثالثة رأى حلمًا أنه جائع وعطشان، وأنه يطوف بالدنيا فيأكل أرضها وجبالها كلها ويشرب كل بحورها، ثم يأكل أرضًا سوداء طينية فلا يستسيغها.. فتكرر استيقاظه مهمومًا بحلمه وهيمانه على وجهه بين الناس.

أما في الليلة الرابعة فقد رأى أنه قد حُشر له الإنس والجن والحيوانات والطير، ثم أحاطت به الرياح فأرسل معها المخلوقات إلى أرجاء الأرض الأربعة.

فلما استيقظ جمع وزراءه ورجاله وقص عليهم تلك الرؤى، فاحتاروا في تفسيرها، فقام منهم رجل حكيم وقال له «أيها الملك لا يفسر رؤياك إلا نبي ببيت المقدس من ولد إسحاق بن إبراهيم الخليل».

فجمع الملك الصعب جيشًا عظيمًا يبلغ عدد مقدمته فقط ألف ألف فارس، وتوجه إلى بيت المقدس، وفي طريقه إليها مر بمكة، فمشى في الحرم حافيًا تواضعًا للـه وطاف بالكعبة وأدى المناسك، ثم ذهب لبيت المقدس.. وهناك

التقى بالخضر فسأله «أيوحى إليك؟» فأجابه «نعم يا ذا القرنين»، وكان أول من سماه بذلك.

فقص عليه ذو القرنين رؤاه الأربع ففسرها له: «إن اللـه مكّن لك في الأرض وأعطاك من كل شيء سببًا، فأما طلوعك إلى السماء فهو علم منحه لك اللـه، وأما إمساكك بالشمس والقمر واتباع الكواكب والنجوم لك فإنه لا يبقى ملِك في الأرض إلا خلعته ولا رأس إلا تبعك، وأما ابتلاعك الأرض فهو تملكك لها، وأما ابتلاعك البحار فإنك تبحر بها وتملك جزرها، وأما الإنس والجن فإنك تنقل الناس من أرض إلى أرض، وأما الطير والحيوانات، فإنها تُسَخَر لك وأما الرياح فإنها تخدمك.. وأما طوافك بالشمس والقمر فإنك ستتجاوز مغرب الشمس وتدخل في ظُلمة لا يهديك فيها إلا علمك، وأما الأرض الطينية التي لم تستسغها فهي نهاية رحلتك وأرض لا تقدر أن تعبرها لما بعدها.. فانهض لأمر اللـه واعمل بطاعة اللـه وهو يغنيك ويسددك ويوفقك».

ونام ذو القرنين فرأى كأنما طلعت له الشمس من المغرب وقادته لأرض مفروشة بنجوم السماء، فلما استيقظ أخبر الخضر برؤياه فقال له إن اللـه يأمره بالمسير بجيشه إلى المغرب حتى يبلغ وادي الياقوت.

فسار ذو القرنين يغزو المغرب، وينقل الناس من أرض إلى أرض، حتى بلغ أرض الحبشة ففتح بلادها وأخضع أممها.. وكان معه الخضر يخبره بما يأمر به اللـه في وحيه.

وأكمل ذو القرنين مسيره نحو الغرب، حتى بلغ قومًا لا ينطقون فقال له الخضر أن يأمرهم، فمن نفذ الأمر فهو مطيع ومن يعصيه فهو عاصٍ فيقتله.. ثم بلغ قومًا زرق الأعين ففعل بهم مثلما فعل بمن قبلهم، ثم أتى قومًا لهم آذان كآذان الجمال ففعل بهم مثل ذلك، ثم دلف إلى قوم آذانهم كبيرة تغعطي أذن أحدهم نصف رأسه فكان منه معهم مثلما كان مع من سبقوهم، واستمر على ذلك حتى بلغ المضيق المفضي إلى أرض الأندلس (مضيق جبل طارق الآن) فعبر البحر إلى الأندلس (شبه جزيرة أيبيريا أو إسبانيا والبرتغال حاليًا) فغزاها وسيطر عليها، ثم عبر المحيط، وكان في عبوره كلما بلغ جزيرة بنى عليها منارة، ووضع عليها صنمًا يسيطر به على الرياح (غالبًا يقصد الطلاسم، وهو أمر مستغرب من رجل يفترض أنه مؤمن باللـه).

ثم بلغ جزيرة وجد بها قومًا لا يفقهون ما يقولون ولا ما يقال لهم، فأراد قتلهم فقال له الخضر «يا ذا القرنين إما أن تُعَذِب وإما أن تتخذ فيهم حسنًا» فأجابه «أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يُرَد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا. وأما من آمن وعمل صالحًا فله جزاء الحسنَى وسنقول له من أمرنا يُسرا».

ثم بلغ واديًا رمليًا عظيمًا، فطلعت عليه الشمس حامية فلم يطق حرها وكادت تهلكه وجيشه، فصار يبعث الجنود لعبوره فلا يرجعون، فقال له الخضر «يكفيك يا ذا القرنين فإنه لن يتجاوز هذا إلا من قد تجاوزوه».

فعاد وسار بجيشه بجوار وادي الرمال، والشمس خلفه، حتى بلغ أرضًا بها أحجار أشرق منها نور أبيض أغشى أبصار الجند، فسألوه «يا ذا القرنين ما هذا المكان؟» فأجابهم «أنتم في مكان من أخذ منه ندم ومن لم يأخذ منه ندم»، فعبروه ثم استفسروا منه عنه فقال لهم «لقد عبرتم وادي الياقوت» فصار من أخذ من الأحجار المضيئة يقول «ليتني أخذت كثيرًا مما فيه» وصار من لم يأخذ يقول «ليتني أخذت ولو قليلا مما فيه».

ثم بلغ ذو القرنين موضعًا به صخرة بيضاء عليها نسور، فاستغرب منها وسأل عنها الخضر فأجابه «لما ذهب النبي إبراهيم إلى مصر، بعث رجلاً يُدعَى جرجير بن عويم إلى المغرب والأندلس ليدعو أهلها لعبادة اللـه، فقتلوه وألقوه في موضع من الأرض، فأرسل اللـه هذه النسور فحملته ثم أكلت لحمه وفصلته عن عظامه ثم تقيأته على هذه الصخرة وحملت عظامه إلى غابة لا يصل إليها الطير، فعظامه فيها ولحمه هنا إلى يوم القيامة، لكيلا يُمَس لحمه أو عظمه، لأن لحم الشهداء وعظامهم محرمة على الطير والحيوان ودواب الأرض».

ثم دنا ذو القرنين من الصخرة ليتسلقها، فكلما اقترب منها انتفضت وإذا ابتعد عنها سكنت، فتقدم منها الخضر فتسلقها وهي ساكنة، وبقي يصعدها إلى السماء وذو القرنين ينظر إليه.

حتى إذا بلغ الخضر قمتها ناداه منادٍ من السماء أن «امض أمامك فاشرب وتَطَهَر فيها، فإنها عين الحياة، فإنك إذا شربت منها تعيش إلى يوم يُنفَخ في الصور ويموت أهل السماوات والأرض فتموت معهم».. ففعل الخضر ذلك ثم عاد لذي القرنين وقال له «إني قد شربت من ماء الحياة وأعطيت الحياة حتى يُنفَخ في الصور، أما أنت فمُنِعت من ذلك ولك مدة عمر تبلغها وتموت، فارجع فإنه ليس بعد هذا الموضع مزيد للإنس ولا للجن».

فرجع ذو القرنين وسار شرقًا، ومر بمصر والشام وصار يفتح بلادها ويفعل مثلما كان يفعل مع الأمم في طريقه لمغرب الشمس، حتى بلغ المحيط ثم دخل إلى أرض العراق وسار نفس السيرة، ومنها إلى جزيرة العرب ثم بلاد فارس ثم أرمينيا، حتى بلغ أرض يأجوج ومأجوج فقاتلهم وهزمهم، ووجد أمة من نسل يافث بن نوح فولاهم أمر هذه الأرض وتركهم فسُمّوا «التُرك» لتركه إياهم.

ثم بلغ أرضًا منبسطة ليست بها جبال ولا ربوات، ووجد أرضًا شمسها حامية بها قوم ضيقو الأعين، وجوههم صغيرة مشعرة كوجوه القردة، قد اعتادوا الخروج لمعيشتهم في الليل من حر شمس النهار، وكان يتحدث لغتهم فدعاهم إلى عبادة اللـه، ثم سار في أرضهم حتى بلغ قومًا يعيشون مثلهم إلا أن لهم وجوهًا سوداء طويلة وأعينًا زرقاء، فدعاهم إلى عبادة اللـه فآمنوا معه، ثم بلغ البحر فركبه وسار فيه سنة كاملة، وعبر الظلمات حتى بلغ أرضًا بيضاء كالثلج، بها ضوء باهر ليس كضوء الشمس، وعندما حاول المسير فيها بجيشه غاصت قوائم الدواب في الأرض، فترك جيشه ومضى وحده يسير أياما، حتى بلغ دارًا بيضاء منفردة على بابها رجل أبيض، وفوقها رجل مثله قد أمسك بوقًا وهو ينظر للسماء.

فلما بلغ الدار قال له الرجل الواقف بالباب «إلى أين تريد يا ذا القرنين؟ ألم يكفك أرض الإنس والجن حتى أتيت أرض الملائكة؟» فسأله ذو القرنين «ومن أنت يا عبد اللـه؟» فأجابه «أنا مَلَك من ملائكة اللـه، وهذه الدار دار الدنيا، وحامل البوق هو إسرافيل ينتظر أن يؤمر فينفخ في الصور فيُصعَق أهل الأرض والسماء».

ثم أردف المَلَك «ارجع يا ذا القرنين فليس من مزيد، وخذ عنقود العنب هذا فكل منه، وليأكل منه عساكرك فإن لهم فيه آية، وهو يبلغكم إلى أرض الإنس والجن» ثم أعطاه حجرًا مثل البيضة وقال له «وخذ هذا فزِنه تر فيه عبرة وعظة».

فرجع ذو القرنين إلى جيشه وأكلوا جميعًا من عنقود العنب، فصار لا ينقص وكفاهم جميعًا في رحلتهم، حتى بلغوا أرض العمران فوضع

ذو القرنين الحجر في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى جميع جواهره، فرجحت كفة الحجر وصارت تهبط ولا ترتفع مهما وضعوا في الكفة المقابلة.

فتقدم الخضر وقال لذي القرنين «هذا الحجر مثل عينك لم يملأه ما في الأرض كلها ولكن هذا يملأ كفته»، ووضع حفنة من التراب مع الحجر في كفته فارتفعت، فقال الخضر «هذا مثل عينك لا يملؤها إلا التراب».

ثم سار ذو القرنين حتى بلغ قومًا يفهمونه بالكاد «لا يكادون يفقهون قولاً» فعرضوا عليه أن يقدموا له مالاً مقابل أن يبني سدًا يفصل بينهم وبين قوم يأجوج ومأجوج، لأنهم قد أفسدوا في الأرض وأضروهم، فرفض المال قائلاً «ما مكنني فيه ربي خير»، ثم تطوع لبناء السد، وطلب منهم أن يأتوه بالحديد وأن يعينوه على بناء السد، فبناه كأقوى ما يكون، ثم قال «هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكًا وكان وعد ربي حقًا».

وكان عرض السد ألف ذراع وطوله ألف ذراع.

ثم ارتحل ذو القرنين حتى بلغ قومًا من ولد يافث بن نوح يُدعَون «الترجمانيين» لأنهم ترجموا صحف إبراهيم بلغتهم، فوجدهم قد سكنوا المقابر، وليس لهم قضاة ولا حكام وليس بينهم غني ولا فقير، فسألهم «لم تسكنون المقابر؟» فأجابوه «لكيلا ننسى الموت وتستهوينا الدنيا، وقد رأينا مصير من تستهويهم الدنيا».

فسألهم «ولم ليس بينكم غني ولا فقير؟»

فأجابوه «رأينا غنيِ الدنيا فقيرًا بالآخرة، وأن ليس للغني في الدنيا من جميع ماله إلا ما أشبعه وكَساه، فتساوينا لكيلا يكون بيننا فقير فنستضعفه ولا غني فنحسده ويحقر ضعيفنا».

فسألهم «ولم ليس بينكم حاكم ولا قاضٍ؟»

فأجابوه «رأينا الدنيا والأمم من قبلنا يتجبر فيها القوي على الضعيف قليل الأنصار، فما من عزيز إلا أرسل اللـه عليه من يسلبه قوته وعزه، فما من قوي إلا سلط اللـه عليه من هو أقوى، وليس من أمة إلا سلط اللـه عليها أمة أقوى، فكففنا أيدينا عن ظلم بعضنا بعضًا، وصرنا ليس فينا ظالم ولا مظلوم فطاب لنا العيش».

فنصحهم أن ينشروا العمران ويغرسوا الزرع في الأرض، لأن من لا يجد متعة في معيشته ينظر لما في يد غيره ويعتدي عليه.

ثم مضى إلى أرض سمرقند (غرب آسيا) ومنها للصين والهند وهو يغزو ويوطد مُلكه، ثم توجه إلى جزيرة العرب، فبينما هو في أرض العراق رأى أنه يموت ويكون قبره فيها، فأعلَم الخضر فقال له «يا ذا القرنين انقضى الأمل وحان الأجل».

فمرض ذو القرنين ثمان ليالٍ ثم مات، فاختفى الخضر عن الناس ولم يظهر لأحد من بعده إلا للنبي موسى.

ويختم وهب بن منبه روايته عن ذي القرنين، وهو الصعب مَلِك حِميَر، بأقوال منسوبة لبعض الناس، على رأسهم كل من كعب الأحبار وعبد اللـه بن عمرو بن العاص (راجع المقدمة).

* * *

هذه رواية وهب بن منبه في كتابه «التيجان في ملوك حِميَر» عن ذي القرنين، فماذا عن رواية الثعلبي النيسابوري في كتابه «عرائس المجالس»؟

يقول الثعلبي في كتابه: يقول أكثر أهل السير هو الإسكندر بن فيليبش بن بطريوس بن هرمس بن هردوس بن منطون بن رومي بن لطين بن يونان بن يافث بن نوح.

تبدأ القصة قبل ميلاد الإسكندر، بأن تزوج دارا الأكبر ـ ملك الفُرس ـ بيونانية اسمها هيلانة، فلما دخل بها وجد منها رائحة كريهة لا تزول، فنصحه الحكماء أن تغتسل بمنقوع شجرة اسمها «سكندروس»، فلم تذهب رائحتها فردها لأهلها وفارقها، وقد حملت منه ثم أنجبت طفلاً سمته «سكندروس» باسم تلك الشجرة، ثم خُففت إلى «إسكندر».. وكان أبوها فيليبش ملكًا على اليونان فربى الإسكندر ونُسِبَ إليه.

وكان اليونان آنذاك يؤدون الجزية إلى الفُرس، وكانت جزيتهم عبارة عن بيضة من الذهب.

ومات فيليبش فورث الإسكندر مُلكه، ولُقِبَ بذي القرنين، يقال لأنه كان يرى في المنام أنه أخذ قرني الشمس، فتفسيرها أنه يملك المشرق والمغرب، وقيل لأنه دعا قومه للإيمان فضربوه مرتين على قرني رأسه، وقيل لأنه كان يقاتل بيديه وركابه وحده، وقيل لأن في عهده هلكت أجيال قرنين من الناس.

وعودة لقصة الإسكندر «ذي القرنين»، فإنه لما ملك امتنع عن أداء الجزية وغزا من حوله ووَحَّدهم تحت حكمه، وكان دارا الأكبر قد مات آنذاك وورث حكم فارس دارا الأصغر (الذي يفترض أنه أخو الإسكندر لأبيه) فلم يرسل له الإسكندر بيضة الذهب، فلما أرسل يطلبها كان جوابه «إن الدجاجة التي تبيضها قد ذبحناها وأكلنا لحمها».

فغضب دارا وأرسل له صولجان وكرة وجوال سمسم، وكان تأويل ذلك «إنك مجرد طفل تلعب بالصولجان والكرة وإني أغزوك برجال يقهرونك ولو كان عدد جنودك كحبات السمسم» (ملاحظة: الكُتاب العرب القدامى يحبون جدًا مسألة الرسائل الرمزية!).

فأجابه الإسكندر «إني قد نظرت إلى الكرة والصولجان فرأت تأويله أني أضم بلادك إلى بلادي، وأرضك إلى أرضي، وكذلك أوّلت حبات السمسم».

ثم جمع الإسكندر جيشه وغزا بلاد دارا والتقى بجيش الفُرس عند خراسان، فبينما الجيشان يقتتلان غدر اثنان من أعوان دارا به وقتلاه طمعًا في المكافأة من الإسكندر، رغم أنه كان قد أمر أن يؤسر دارا ولا يُقتَل.

وانطلق الملك اليوناني إلى الملك الفارسي المحتضر، ووقف إلى جواره وقال له «إني لم آمر بقتلك، ولو أن لك حاجة قلها لي أقضيها لك» فأجابه دارا

من بين أنفاسه الأخيرة «لي حاجتان، أولهما أن تنتقم لي من الرجلين اللذين خاناني وقتلاني، والثانية أن تتزوج بابنتي روشنك».

فأمر الإسكندر بصلب قاتلي دارا والمناداة «هذا جزاء من غش أهل بلده وخانهم» وتزوج بروشنك.

ومَلَك الإسكندر بلاد دارا، ثم غزا بلاد الهند وملكها فأمر بهدم معابد المجوس والهنود والأصنام والأوثان، ودعا الناس إلى عبادة اللـه، ويقال إنه قد حرق كتب المجوس لأنها كانت مكتوبة بالذهب، فأحرقها واستخرج الذهب منها وبنى به 12 مدينة منها الإسكندرية.

ورأى الإسكندر في نومه أنه قد أخذ بقرني الشمس، وكانت بداية تلقيبه بذي القرنين.

وهنا يتوقف الثعلبي النيسابوري عن السرد، ويناقش مسألة هل ذو القرنين نبي أم هو رجل صالح؟ ثم يرجح أنه نبي ويذكر أن اللـه قد قال له «إني بعثتك لجميع الخلائق» ثم ذكر له أسماء الأمم التي بُعِثَ لغزوها ودعوتها إلى عبادة اللـه، فسأل ذو القرنين ربه «بأي قوة أفعل ذلك؟» فوعده اللـه أن يؤيده ويشرح صدره وأن يسخر له الظُلمة والنور يعينانه ويسيران حول جيشه، يهديه النور من أمامه وتحميه الظلمة من خلفه.

وعودة لقصة الإسكندر ذي القرنين، فإنه قد حشد جيشه فوجده 1440000 (مليونًا وأربعمئة وأربعين ألفًا) منهم 800000 من رجاله و600000 هم جند دارا الذين ضمهم لجيشه و40000 من المساكين والفقراء الذين اتبعوه (هل لاحظت تكرار ولع الرواة بمبالغات الأرقام؟)

وسار ذو القرنين بجيشه نحو الغرب، حتى بلغ مغرب الشمس فوجدها تغرب عند عين ساخنة، ووجد أمة تُدعَى «ناسك» مختلفة الألسنة والأصناف تعيش هناك، قد احتشدت جيوشها في أعداد لا تُحصى وقوة لا يقهرها بشر، فأمر الظلمة فأحاطت بهم بثلاث طبقات وأمر النور أن يسطع عليهم، ودعاهم للإيمان فآمن بعضهم وكفر بعضهم، فسلط الظلمة على الذين كفروا فدخلت في أفواههم وحاصرتهم فصرخوا وتضرعوا واستغاثوا فردها عنهم وسيطر عليهم عنوة.. فجاءته أمم المغرب تعلن الطاعة فضم جيوشها لجيشه وانطلق شرقًا.

وفي مسيره كان يحمل مراكب مفككة في هيئة ألواح، فإذا أراد عبور نهر أو بحر ركبها وعبر، وهكذا حتى بلغ أمة تُدعَى «هاويل» ففعل بها فعله في «ناسك» وضم جندها لجنده وأكمل طريقه نحو مشرق الشمس، حتى بلغ أمة تُدعَى «منسك» فكان منه معها ما كان مع الأمتين السابقتين لها.

وعند بلوغه مطلع الشمس، وجد الإسكندر أمة «تاويل» وهم قوم ليس بينهم وبين الشمس ساتر، حفاة عراة بدائيون، وأرضهم لا يتماسك بها بناء، فهم يختبئون في جحور تحت الأرض طوال النهار ثم يخرجون لمعيشتهم في الليل، ففعل معهم كما فعل مع الأمم التي لاقاها قبلهم.

ثم توجه إلى «وَسَط الأرض» حيث بلاد التُرك، فوجد قومًا صالحين بالكاد يفهمون لغته «لا يكادون يفقهون قولاً»، فشكوا له إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض، فبنى السد كما سلف الذكر في الرواية السابقة.

ثم زحف ذو القرنين بجيشه إلى القطب الشمالي ـ على حد قول الثعلبي ـ وقصة ذلك أنه كان له صديق من الملائكة اسمه رفائيل، فسأله ذو القرنين يومًا عن عبادة الملائكة، فبكى المَلَك وقال «إن من الملائكة من هو قائم لا يجلس أبدًا ومن هو ساجد لا يقوم أبدًا ومن هو راكع لا يستوي قائمًا أبدًا، كلهم يقول: سبوح قدوس رب الملائكة والروح، ربنا ما عبدناك حق عبادتك» فبكى ذو القرنين وقال «إني أحب أن أعيش طويلاً فأعبد اللـه حق عبادته» فقال رفائيل «إن للـه عينًا في الأرض اسمها عين الحياة من يشرب منها لا يموت أبدًا حتى يكون هو الذي يسأل اللـه أن يميته، ونحن نظن أنها في أرض الظُلمة التي لا تطأها قدم إنس ولا جان».

فجمع العلماء والحكماء وبحثوا في الكتب عن ذكر أرض الظلمة، حتى قال له أحدهم إنه قد وجد خبرًا عنها في وصية آدم، وإنها في الأرض التي على قرن الشمس ـ أي القطب الشمالي ـ فأمر ذو القرنين بالمسير إليها.

فبقي يسير إليها مدة 12 سنة حتى بلغها، ووجدها مغطاة بظلام كالدخان، فعسكر بجيشه على مشارفها.

وحاول رجاله ووزراؤه أن يثنوه عن دخول تلك الأرض، معللين ذلك بأنهم يخافون أن ينفتح منه باب للشر والأذى، فأصر على رأيه وسألهم عن أي الدواب أبصَر في الليل فقالوا «الخيل»، فسألهم أي الخيل أبصر فقالوا «الإناث»، فسألهم عن أي الخيل الإناث أبصر فقالوا «الأبكار».

فانتخب من جيشه 6000 فرس أنثى أبكار وأعطاها لستة آلاف فارس، واختار من الستة آلاف ألفين جعلهم مقدمة له، وجعل على رأس المقدمة الخضر ـ وكان مصاحبًا له ـ ثم قال لباقي عسكره ورجاله «انتظرونا هنا 12 سنة فإن لم نرجع إليكم ارجعوا إلى بلادكم».

وأعطى الخضر خرزة حمراء وقال له إنه إن ضل في الظلام من جند المقدمة فليلقها أرضًا فهي تصيح، فليتبع صوتها كل من ضل حتى يهتدي إلى رفاقه.

وبينما الخضر يتقدم الجيش الصغير، وجد واديًا، فوقع في نفسه أن عين الحياة فيه، فدخل يستكشفه فوجد عينًا ماؤها أبيض كاللبن، فخلع ثيابه واغتسل فيها ثم خرج وعاد لجنده.

أما ذو القرنين فقد ضل الطريق بمن معه من الجند، فسار حتى وجد قصرًا عملاقًا له باب ضخم، ووجد سلسلة حديدية مربوطًا بها طائر جارح كبير.

فلما رآه الطائر سأله «من أنت؟» فقال «أنا ذو القرنين» فقال «يا ذا القرنين أما كفاك ما ورائي حتى بلغتني؟» وصار الطائر يسأله عن أحوال الدنيا وهو يجيبه، ثم قال له «اصعد هذا الدرج» فصعد ليجد شابًا قائمًا ينظر للسماء كأنما يراقبها، فلما أحس به الشاب قال له «يا ذا القرنين إن الساعة قد اقتربت وإني أنتظر أمر ربي أن أنفخ في الصور» ثم أعطاه حجرًا فقال له «خذ هذا الحجر فإن شبع شبعت أنت، وإن لم يشبع لم تشبع».

وقصة الحجر والميزان هي ذاتها التي في الرواية السابقة.

وقرر ذو القرنين الرجوع إلى بلاده، ومر بوادي الزبرجد، فسأله جنده عنه فقال لهم «خذوا منه فإن من أخذ ندم ومن لم يأخذ ندم» (كما في الرواية السابقة).

وأخيرا، عندما بلغ الإسكندر ذو القرنين أرض العراق مات، ويقال إنه كان في السادسة والثلاثين من عمره، وورث مُلكه بطليموس بن لوسوع، ونُقِلَ جثمان الإسكندر للإسكندرية ودُفِنَ فيها.

وهنا تنتهي رواية الثعلبي في «عرائس المجالس».

*   *   *

من الموضوعات المميزة في الأساطير الإسلامية تيمة «الشخص مجهول الأصول غير محدد الشخصية غامض التفاصيل المذكور في القرآن»، فهذا الموضوع من أكثر ما يثير فضول الرواة والمفسرين، فيحاول كثير منهم إيجاد قصة كاملة التفاصيل له.

وعندما يرتبط الأمر بقائد أو بملك فإنه يصبح أكثر إثارة، إذ يبدأ البحث في كتب التاريخ وروايات الأقدمين عمن توافق صفاته ـ أو تقترب من ـ الصفات المذكورة لهذا الملك.

الأمر يسير كالآتي: ذكر القرآن ملكًا اسمه ذو القرنين طاف بأرجاء الأرض وأخضع البلاد واتسع مُلكه وأُعطي من كل شيءٍ سببًا.. هلمّوا إذن نبحث عمن تقول سيرته إنه كان كذلك أو حتى اقترب من تحقيق ذلك.

بالنسبة لوهب بن منبه فإن المرشح المثالي لذلك كان الملك الصعب الحِميَري اليمني، وهو اختيار منطقي، فملوك اليمن بالذات كانت لهم مكانة عظيمة عند العرب، لأن اليمن كان يمثل لكثير منهم «النموذج العربي القوي الباعث على الفخر»، فبينما كان عرب وسط الجزيرة يعيشون تحت حكم قبلي بحت، وعرب شمالها يخضعون لوصاية الفُرس أو البيزنطيين، فإن اليمن قد قامت فيه ممالك مستقلة قوية ذات حضارة وثقافة وتمدُّن، واستمر كذلك حتى الغزو الحبشي ثم السيطرة الفارسية، فكان ملوك اليمن ـ بالذات ملوك دولة حِميَر ـ مفخرة العرب وموطن اعتزازهم، فلِمَ لا يُنتَقَى أحدهم ليلعب دور «ذي القرنين» فيضاف للعرب مزيد من الشرف بأن يكون منهم ملك مؤمن مجاهد عظيم مذكور في القرآن؟ (ووهب بن منبه نفسه يمني).

أضف إلى ذلك أن كثيرًا من المؤرخين والرواة المسلمين كانوا ينسبون لملوك اليمن إنجازات جليلة، فيقولون مثلاً إن إفريقية (تونس حاليًا وهي تختلف عن إفريقيا القارة) تحمل هذا الاسم نسبة للملك اليمني إفريقش الذي غزاها وأخضعها (وهو أمر لم يقع تاريخيًا طبعًا) وأن البربر يسمون بذلك لأنه لما سمع لغتهم قال «ما هذه البربرة؟» وأن «سبأ الأكبر» ـ مؤسس دولة سبأ ـ سُمي بذلك لأنه أول من أوجَد السَبي (اتخاذ أسيرات العدو سبايا) أو أن لقمان الحكيم كان ملكًا يمنيًا، رغم أن أغلب الرواة يقولون إنه حبشي... وهكذا، فليس غريبًا أن يكون ذو القرنين من ملوكهم.

ورواية وهب بن منبه تحمل من «الرسائل التهذيبية» الكثير، فهي لا تقدم ذا القرنين كرجل صالح من مبتدأ أمره، بل تجعله جبارًا متكبرًا حتى يتلقى «الإشارات الإلهية» في مناماته، فيتواضع وتنقلب حاله فيصبح رجلاً صالحًا.. ثم يلتقي الخضر ويصبح مريدًا له.. ويطوف بالأرض ويخضع الأمم، ثم تنتهي قصته بمقطع حواري ممتع (اختصرته هنا لكيلا أطيل على القارئ لكني أنصحه بقراءته في كتاب وهب بن منبه) مع القوم الذين لا حاكم لهم ولا قاضي ولا غني بينهم ولا فقير، فتحسه نقاشًا فلسفيًا أخلاقيًا حول العدل والتناصف والطمع والتواضع والقناعة، يختمه بنصيحة لهم بالاعتدال في أمرهم.. ويبدو واضحًا فيه أنه صيغ بهذا الشكل خصوصًا لتوجيه درس مستفاد للقارئ، وكذلك مشهده مع المَلَك الذي يأمره بالرجوع ويعطيه عنقود العنب والحجر، فهو لم يخرج أصلاً ولم يتحرك إلا بأمر الله وتوجيهه له من خلال الخضر، فلا مجال لاتهامه بالغزو طمعًا في السطوة، وأما عنقود العنب الذي يكفي الجيش ولا ينقص فهو تجسيد مادي لفكرة «البركة في القليل»، وأما الحجر الذي لا يشبع فإن أمره لا يحتاج إلى تفسير، ولكأنما خاض ذو القرنين كل تلك الأحداث لتنتهي قصته بهذه الحكمة حول أن الإنسان لا يشبعه إلا التراب ويكفيه القليل من الطعام، وأنه مهما بلغ فإنه سيموت، وأن القيامة قريبة فلا داعي للاستماتة على مكاسب الدنيا.

والقارئ لكتابات وهب بن منبه يدرك بسهولة، من المأثور عنه من الأقوال، أنه من «أهل الحكم والمواعظ»، فهذا النمط من القصص هو نمطه المفضل.

أما رواية الثعلبي فهي تحمل نفس المعاني، ولكنها تختلف في كونه أكثر اطلاعا ـ كما يبدو بشدة ـ على تاريخ الأمم الأخرى، فثمة تفاصيل حقيقية أو تقترب من الحقيقة فيما روى عن الإسكندر المقدوني الذي ألبسه ثوب ذي القرنين، فهو بالفعل ابن فيليب (فيليبش) وقد كان الفُرس بالفعل يقهرون اليونان قبل عهده، ثم غزاهم انتقامًا من سابق غزوهم لبلاد الإغريق، وواقعة قتل دارا ووصيته للإسكندر وزواج هذا الأخير بروشنك مذكورة في كتب التاريخ الموثوقة، ثم غزوه الهند وعودته ووفاته بالعراق ـ في بابل تحديدًا ـ وهو في الثلاثينات من عمره، ووراثة بطليموس لمصر من بعده.

ولا ينتقص من ذلك وجود بعض التفاصيل الساذجة، مثل كون الإسكندر ابنًا لدارا الكبير (وهو ما يعني أنه أخو دارا الأصغر الذي تزوج ابنته، أي أنه عمليًا تزوج ابنة أخيه!)، أو قصة شجرة السكندروس، ورسائل الصولجان والكرة والسمسم وما إلى ذلك من «الإضافات» التي يحبها الرواة المسلمون، وتعطي قصصهم جوًا مسليًا بشدة!

ولكن لماذا الإسكندر بالذات؟ هل لاتساع نطاق غزواته وإقامته إمبراطورية كبيرة وعدم تعرضه لهزيمة واحدة في حياته؟ أم ربما وقع الثعلبي في نفس خطأ بعض من شاهدوا رسومًا للإسكندر وقد زين جبهته قرنا كبش، فافترضوا أنه ذو القرنين؟ (غالبا بعد تتويجه ابنًا لآمون في معبده بواحة سيوة، حيث إن الكبش كان من رموز آمون)، هل قرأ الثعلبي عن قصة الأحبار اليهود الذين التقوا الإسكندر في بعض غزواته في الشام، وأخبروه أنهم قد قرأوا في سِفر دانيال أن تيسًا يأتي من الغرب ويصرع كبشًا في الشرق، وأن هذه نبوءة بانتصار الإسكندر على الفُرس، فلفت نظره وصف التيس وارتباطه بوجود قرنين فأوّلها بأن الإسكندر هو ذو القرنين؟

وفي جزء «أرض الظُلمة» في رواية الثعلبي يتجلى أثر «التخمين» فيفترض الراوي أن أرض الظلمة هي «القطب الشمالي» ـ هكذا كتبها ـ غالبًا لأن تلك المنطقة من العالم تعيش في ليل متواصل لمدة ستة أشهر، ثم نهار متواصل لستة أشهر تالية... وهكذا.

وبشكل عام فإن كلتا الروايتين تبدو فيهما التأثيرات «التاريخية» أكثر من تلك «الأسطورية» أو «التوراتية»، ففي كلتيهما تم تناول أحداث تاريخية لشخصيتين حقيقيتين، ثم إلباسهما ثوب القصة القرآنية ونسج «توصيلات» بينها لتلائم كل منهما الأخرى.. هذا مستوى عال جدًا من توظيف الخيال والتخمين والتلفيق، يجعل لتلك الصياغة الأسطورية نموذجًا فريدًا لكيفية

تفسير كل من التاريخ والقصص القرآني بالأسطورة، فكأنهما جزيرتان والأسطورة جسر بينهما!

XIV

عن الـعـنـقـاء نـتـحـدث

قديمًا قيل: «المستحيلات ثلاثة، الغول والعنقاء والخل الوفي»

وموضوعنا هنا هو المستحيل الثاني: العنقاء

من الغريب أن تحتوي بعض الكتابات العربية على وصف تفصيلي مستفيض للعنقاء وهيئتها ودورة حياتها كاملة، بل وقصصها مع الأنبياء، ونشأتها ونهاية وجودها وطعامها وتكاثرها... إلخ، لكأنما المتحدث كان يتعايش مع عنقاء عن قرب ليصف كل ذلك بتلك الثقة العالية.

يصفها القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» فيقول إنها أعظم الطيور جثة وأكبرها حجمًا تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر.. ويقول إنها كانت تخطف الناس فخطفت في يوم عروسًا فشكا أهلها للنبي حنظلة بن صفوان (رجل من العرب يعتقد البعض أنه كان نبيًا عربيًا بين الرسول عيسى والرسول محمد وأنه نبي «أصحاب الرس» المذكورين في القرآن) فدعا اللـه فأبعدها إلى جزيرة تحت خط الاستواء، فهي تعيش فيها وتتسيد على من فيها من الحيوانات والطيور، وهي لا تفترسهم لأنهم يطيعونها، فهي تطير لتصيد فتأكل من صيدها ثم تترك الباقي لهم.. وهي لا تصيد إلا حوتًا أو فيلاً أو تنينًا (يقول القزويني إن التنين كائن حقيقي يرسل اللـه الملائكة ليصيدوه ويلقوه إلى يأجوج ومأجوج وراء السد ليأكلوا منه!)

وصوت ضربها بجناحيها للطيران كصوت السيول أو الرياح الشديدة.. وهو يروي واقعة عن بعض البحارة الذين رأوها بالمحيط (يروي الرحالة ابن بطوطة قصة مشابهة وقعت له شخصيًا مع طائر الرُخ!)

ويصف القزويني دورة حياتها فيقول إنها تعيش 1700 سنة، وتتزوج عندما تبلغ من العمر 500 سنة.. وعندما تبيض أنثاها تتألم بشدة، فيطير الذكر ويحمل الماء في منقاره ويحقنه فيها (كالحقن الشرجي) فيسهل عليها نزول البيض الذي يفقس بعد 125 سنة.

فإذا كبر الفرخ تحضر الأنثى حطبًا ويقدح الذكر بمنقاره حتى يشعل فيه النار، فإذا كان الفرخ ذكرًا تدخل الأنثى النار وتحترق ويصير الفرخ زوجًا للذكر، والعكس بالعكس لو كان الفرخ أنثى.

ثم يختم القزويني حديث قائلًا: «وقد ذكروا في العنقاء أقوالاً عجيبة أعجب مما ذكرنا، لكنها لم تكن مستندة إلى قائل يعتمد فاعتمدنا على هذا القدر» (!!).

والقارئ لكتاب «حياة الحيوان الكُبرى» لكمال الدين الدميري، يجده يذكرها باسم «عنقاء مُغَرِب» ويقول إن «مغرب» ليس لها معنى (رغم أنها في كتابات أخرى تدل على البعد فيقال «غَرَّبَ» أو «تغرّب» أي ابتعد عن دياره)، ويعلل اسمها «العنقاء» بأن في عنقها كمثل الطوق الأبيض.

وهو يذكر ما كتب القزويني، ثم يضيف قولاً منسوبًا لأرسطوطاليس، يصف كيفية صيد العنقاء بوضع فخ لها عبارة عن ثورين مقيدين بحجارة ثقيلة، ثم إذا أنشبت مخالبها فيهما ولم تستطع رفعهما لثقل الحجارة بادر الصيادون بحرق جناحيها.

ويروي عن البعض أن أحد خلفاء الفاطميين كان يربيها في قصره فيما يربي من حيوانات!

ويقول، ناسبًا حديثه إلى عبد اللـه بن عباس، إن العنقاء كانت طائرًا خلق منه اللـه ذكرًا وأنثى في زمن موسى، وجعل له أربعة أجنحة ووجه كوجه الإنسان، وأوحى لموسى أنه قد جعل رزقها الوحوش التي تعيش حول بيت المقدس، ثم بعد وفاة موسى انتقلت العنقاء إلى الحجاز وكانت قد تناسلت، فآذت الناس وخطفت أولادهم فشكوا لنبيهم خالد بن سنان العبسي (وهو رجل عربي آخر يعتقد البعض أنه كان نبيًا بين الرسول عيسى والرسول محمد) فدعا اللـه فقطع نسلها وانقرضت فهي لا توجد الآن.

أما القصة المثيرة حقًا فهي قصة التحدّي بين النبي والملك سليمان والعنقاء، حول القضاء والقدر.

تقول القصة إن النبي سليمان قد جمع الطير يومًا وعاتبهم في أمر صدر عن بعضهم، فاعتذر بعضهم بأنه القضاء والقدر، فقال «صدقت إنه القضاء لا حيلة في تغييره» فعارضته العنقاء وقالت بإمكانية تغييره.

ويصف الراوي العنقاء بأنها كانت في حجم الجمل الضخم، ولها أثداء كالمرأة ووجه إنسان.

فقال النبي «قد ولد الليلة غلام بالمغرب وجارية بالمشرق وكلاهما ابن ملك كبير، وهما مقدر لهما أنهما عندما يكبران سيجتمعان على حرام وسِفاح في مكان منيع بجزيرة بالبحر، فهل تقدرين على تغيير ذلك؟»

فقالت إنها تقدر على تغييره، فذكر لها اسم وصفة وبلد كل من الجارية والغلام، وأشهد عليها الطير، بينما تطوعت البومة لتضمنها وتشهد معها.

فطارت العنقاء شرقًا إلى بلد الملك الذي أُنجِبَت له الأنثى، وخطفت الرضيعة وحملتها إلى جزيرة في وسط البحر، وجعلت لها بيتًا على قمة شجرة لا تُبلَغ قمتها.. وتبنت العنقاء الطفلة وصارت تربيها وتطعمها وترعاها كأنها

ابنتها، وكتمت أمرها ولم تخبر أحدًا، لكن الملك سليمان كان قد عرف أمرها وما زال يعرفه، لأن الرياح كانت مسخرة له تحمل له ما يجري في الدنيا.

وكبرت البنت وصارت فتاة بارعة الجمال.. أما ابن الملك المولود بالمغرب فقد بلغ مبلغ الرجال وصار مولعًا بالصيد لا يتركه، ثم قال يومًا لرفاقه إنه قد سئم قنص البر والصحارى ويريد أن يجرب الصيد في البحر، فأعد مركبًا وسافر فيه معهم يصيدون في البحر، وساروا مدة شهر، ثم أرسل اللـه ريحًا ضربت سفينتهم فوجهتها للجزيرة التي تعيش بها الفتاة.

فلما جنحت السفينة إلى الجزيرة خرج منها الفتى يستكشف تلك الأرض، حتى بلغ الشجرة العظيمة، وتصادف أن الفتاة كانت قد رأت من مكانها السفينة ولم تعرف ما هي، لأنها لم تر مثلها من قبل.. فلما أمعن الشاب النظر وقعت عيناه على وجهها وعيناها على وجهه، فناداها وسألها «أأنت إنسية أم جنية» فأجابته «بل إنسية» فتحدثا وقد بهره جمالها، وتعلق كل منهما بالآخر، وأراد أن يتسلق الشجرة فلم يعرف، ففكر في حيلة.

اتفق مع الفتاة على أنه يشق بطن فرس من دوابه ويفرغه ويختبئ فيه، ثم إذا رجعت العنقاء تبكي الفتاة وتُظهِر الشعور بالوحشة، حتى إذا احتارت العنقاء في إرضائها تشير للفرس الميت، وتسألها أن تحمله لها تتسلى به في الوقت الذي تكون فيه العنقاء في بلاط الملك سليمان.

ففعلت الفتاة ذلك، فطارت العنقاء وحملت جسد الفرس ووضعته بين يدي فتاتها، ثم طارت لتعود للنبي.

فخرج الفتى من بطن الفرس، وتعانق هو والفتاة وافتض عذريتها.

في ذلك الوقت كان النبي سليمان قد عرف كل ما جرى، فأخبر العنقاء أنه يعرف أنها قد خطفت الأنثى التي ذكر لها، وأمرها بإحضارها إليه، فذهبت تلبي أمره.

ولكيلا يخيفها الارتفاع، وضعت العنقاء فتاتها في بطن الفرس وحملتها فيه وهي لا تعرف أن الفتى بالداخل معها، وبلغت قصر سليمان فوضعت الفرس بين يديه وأخرجت الفتاة.

وكان سليمان قد حشر الطير والحيوان والإنس والجن في مجلسه، ثم سأل العنقاء «هل تؤمنين بالقضاء والقدر؟» فأجابت «أومن باللـه وأومن بأن المشيئة للعباد ولهم القوة أن يعملوا خيرًا أو شرًا»، فرد النبي «قد جعل اللـه بعض المشيئة للعباد لكنه يقدّر من يكون سعيدًا ومن يكون غير ذلك»، ثم قال لها «فإن قضاء اللـه وقدره قد تحقق وإن الجارية التي حملتِها قد اجتمعت مع الفتى على الزنا»، ثم أمر بإخراج الفتى من جوف الفرس فتحققت العنقاء

مما يقول، ففزعت وخجلت، فطارت غربًا وصارت تتجنب الناس والطيور حياءً مما كان منها، وأما البومة التي كانت في صفها فقد صارت تستحي من مواجهة الطيور، فصارت تطير ليلا وتعيش في الخرائب.

* * *

تتميز أسطورة العنقاء بأنها من الأساطير التي يمكن أن نصفها بـ«المستوردة»، فقد عرفتها شعوب قديمة مثل المصريين القدماء الذين اعتقدوا أنها تطير لتجدد شبابها من معبد «رع» إله الشمس، والفينيقيين الذين قالوا إنها تجدد شبابها بأن تحترق ثم تولد من جديد من الرماد (ولهذا تُسمى أحيانا بطائر الفينيق).. وعرفها العرب قبل الإسلام ـ غالبًا عبر التواصل التجاري والثقافي مع الأمم المحيطة ـ ثم بعد ظهور الإسلام صاغها الرواة في ثوب «ديني»، فهي ترتبط إما بالنبي موسى وإما النبي سليمان، وإما المعتقد في نبوتهما حنظلة بن صفوان وخالد بن سنان.

بل وتسللت للأدب الصوفي، ففي كتابه «منطق الطير» يذكر القطب الصوفي فريد الدين العطار النيسابوري طائر العنقاء ككبير للطير، وملك عليهم.

وأما عن قصة العنقاء مع النبي سليمان، فإنها تجمع بين محاولة تقديم مغزى فلسفي ينتصر لبعض توجهات الجدل الإسلامي الشهير حول سؤال «هل الإنسان مخيّر أم مسيّر»، وفي نفس الوقت يقدم تفسيرًا لاختفاء العنقاء وعدم تمكن أحد من رؤيتها، بنسج قصة في إطار ديني تهذيبي تفسيري.

نحن إذن أمام نموذج لالتقاء ثقافات الشعوب القديمة مع الموروث الجاهلي، ثم صياغة كل ذلك في إطار ديني وفلسفي، وهو نموذج يؤكد مدى تعقيد وتشابك الفكر الأسطوري في الثقافة الإسلامية.

XV

الشيطان الذي استولى على مُلك سليمان

في القرآن نقرأ «ولقد فتنا سليمان وألقيناه على كرسيه جسدًا ثم أناب»

اختلف المفسرون في أمرها، فبعضهم قالوا إنه قد أصابه مرض أقعده وجعله فوق كرسيه كالجسد بلا روح، وغيرهم قالوا إنه قال «الليلة أطوف بنسائي فتحمل كل واحدة منهن ولدًا يكبر ليقاتل في سبيل اللـه» ولم يقل «إن شاء اللـه» فلم تنجب إحداهن إلا واحدة أنجبت نصف إنسان، وآخرون يقولون إنه قد رزق ولدًا فخشي عليه من مَكر الشياطين فأمر الرياح أن تحمله، فعاقبه اللـه على خوفه من الشياطين، فوجد ابنه ساقطًا على كرسيه ميتًا.

وفسرها البعض بأن شيطانًا تمثل في هيئة الملك سليمان وجلس على عرشه، ولكن ابن كثير ينفي هذا ويقول إنه من الإسرائيليات، والقرطبي كذلك ينفيه معللاً ذلك أولا بأن الشياطين لا تتمثل بالأنبياء، وثانيًا بأنه لا يعقل أن ينخدع وزراء ورجال النبي سليمان بشيطان يحل محله ويأمرهم بالشر، فيعتقدون أنه هو بينما هو نبي يأمرهم بالخير.

والواقع أن قراءة تفاصيل قصة «الشيطان الذي اتخذ هيئة النبي سليمان» في ضوء النصوص القرآنية، تظهر مدى تناقضها مع السياق المنطقي لهذه النصوص، فالقصة تقول إن سليمان كان بالفعل يسيطر على الجن والشياطين، وإنه كان يحمل خاتمًا يمكنه من ذلك، ثم غافله شيطان فسرق خاتمه وانتحل شخصيته ثم عاد خاتمه إليه وعاد له مُلكه.

أما سياق الآية «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب. قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب. فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب. والشياطين كل بناء وغواص. وآخرين مقرنين في الأصفاد. هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب. وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب».. فهو يقول إن «إلقاء الجسد على كرسيه» سبق دعاءه أن يهب له اللـه مُلكًا لا ينبغي لأحد من بعده، ثم استجابة اللـه له وتسخير الريح والشياطين له.

أي أنه عندما ألقى اللـه جسدًا على كرسيه، لم تكن الشياطين قد سُخِرَت له بعد.. فكيف كان معه خاتم يجعله يتحكم فيها؟

وهل يحتاج النبي ـ وفقًا للنصوص القرآنية ـ لخاتم خاص بتسخير الشياطين كي تخضع له وإذا فقده لم تخضع؟ أم أنه يكفيه أن يسخرها له اللـه مباشرة؟

لهذا فإن هذا التفسير ـ في ضوء القرآن نفسه ـ غير منطقي.

ولكن ما تفاصيل تلك القصة محل الجدل؟

يقول رواتها إن النبي سليمان غزا بعض بلاد الشام، وغلب ملكًا يُدعَى «صيدون» لم تكن من مملكة أحصن من مملكته، لموقعها على البحر، فأمر سليمان الريح فحملت جيشه، فغزا المدينة وقتل ملكها وسَبَى من فيها، ومنهم ابنة الملك، وكانت بارعة الجمال واسمها «الجرادة».

عرض سليمان على الجرادة الإيمان باللـه، فآمنت بالظاهر خشية على نفسها، فضمها لنسائه.. وتعلق بها جدًا لكنه كان يراها دائمًا حزينة باكية، فسألها «ما هذا الحزن وما هذا الدمع؟» فقالت «أبكي أبي وما كنت فيه من سلطان»، فأجابها «قد أبدلك اللـه مُلكًا خيرًا من ملكه وسلطانًا أعظم من سلطانه، وهداكِ للإيمان وهو خير من ذلك» فقالت له «إني افتقدت أبي فلو أمرت الشياطين أن تصوّر لي تمثالاً على هيئته يكون في الدار التي أنا فيها، فأنظر إليه فيخفف عني».

فأمر الملك الشياطين بذلك، فكانت تستغل غيابه وتسجد هي وجواريها للتمثال كأنها تتعبد له، وبقيت على هذه الحال أربعين يومًا.

وكان من أهم وزراء الملك سليمان آصف بن برخيا، ويقال إنه كان ابن خالته، كما يقال إنه الذي قال له عند طلبه عرش بلقيس «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك»، فعرف ابن برخيا بما يجري في دار «الجرادة»، فأراد أن ينبه النبي لذلك فأتاه وقال له إنه يريد أن يعقد مجلسًا يذكر فيه الأنبياء ويثني عليهم للعظة.. فعُقِدَ المجلس فكان يذكر اسم كل نبي ويثني عليه صغيرًا وكبيرًا، حتى بلغ سليمان فأثنى عليه في صغره ولم يثن عليه في كبره.

فأحس النبي بضيق مما كان، فانفرد بآصف بن برخيا وسأله عن سبب ثنائه عليه في صغره وليس في كبره، فأجابه «لأن غير اللـه يُعبَد في دارك أربعين يومًا بسبب هوى امرأة» (طريقة معقدة نوعًا لتنبيه النبي سليمان.. لماذا لم يقلها له مباشرة؟).

فتوجه الملك إلى دار الجرادة فكسر الصنم وعاقبها هي وجواريها.. ثم أراد الاستغفار فارتدى ثياب التطهر، وهي ثياب كانت تغزلها الأبكار ولا تمسها حائض، فارتداها وخرج للصحراء وجلس على الرماد وهو يبكي ويتضرع ويتمرغ في الرماد تواضعًا للـه.

ثم ذات يوم دخل إلى إحدى نسائه، وكان اسمها «أمينة»، فأراد قضاء حاجته فخلع خاتمه وسلمه لها لتحفظه، لأنه كان لا يمسه إلا متطهر، لأن الخاتم كان من ياقوتة خضراء أنزلها له المَلَك جبريل، مكتوب عليه لا إله إلا اللـه محمد رسول اللـه.

فلما ذهب جاء إلى أمينة الشيطان صخر، شيطان البحار، متخذًا هيئة سليمان، وقال لها «يا أمينة خاتمي» فأعطته إياه فوضعه في يده، وكان فيه قوة مُلك سليمان، فخضع لهذا الشيطان الإنس والجن والطير والحيوان (لاحظ التناقض مع السياق القرآني الذي يقول إن اللـه قد سخرهم له بعد انتهاء فتنته وإلقاء جسد على كرسيه).

أما سليمان فقد عاد من قضاء حاجته وقد تغيرت هيئته مما كان فيه من حزن، فلما طلب خاتمه من أمينة لم تعرفه وأنكرته وطردته (امرأة من المقربات منه إلى حد أنه يأتمنها على خاتم ملكه لم تعرفه أصلا؟!).

فخرج من عندها وصار يطوف ببيوت بني إسرائيل، ويقول للناس «أنا سليمان» فيسخرون منه ويهينونه ويلقون عليه التراب.

فتوجه للميناء وصار يعمل في نقل الأسماك من عند الصيادين، فيمنحونه أجرًا سمكتين، فيبدل بإحداهما رغيفًا من السوق ويأكل به الأخرى، فبقي على هذه الحال أربعون يومًا، عدد الأيام التي عُبِدَ فيها الصنم في داره.

في هذا الوقت كان آصف بن برخيا قد استغرب حُكم الشيطان المنتحل هيئة النبي والملك سليمان، فقال «يا معشر بني إسرائيل هل ترون من اختلاف حكم سليمان ما رأيت؟» (مباشرة دون أن يراجعه كما سبق أن راجعه في أمر الصنم.. يجمع بني إسرائيل ويحدثهم علانية في ذلك!) قالوا «نعم».

فدخل على نساء سليمان (دخول على نساء الملك بهذه البساطة؟!) وسألهن إن كن يستغربن شيئًا من الملك، فقلن إنه يأتيهن في الحيض ولا يتطهر من الجنابة (في بعض التفاسير التي تعتمد قصة استيلاء الشيطان على

مُلك سليمان، ينفي المفسر واقعة دخول الشيطان على النساء، ويقول إن اللـه عصمهن لأنهن نساء نبي).

فخرج آصف لبني إسرائيل وقال لهم «ما في الخاصة أعظم بلاء مما في العامة!»

وبعد مرور أربعين يومًا طار الشيطان صخر من مجلس الملك سليمان، وفي طيرانه ألقى الخاتم في البحر، فابتلعته سمكة.

وعندما كان سليمان ينظف سمكة ليأكلها وجد الخاتم في بطنها، فوضعه في يده، وتوجه إلى قصره فأظهر الإنس والجن والطير والحيوان الخضوع له!

فأمر بالقبض على صخر، فجيء به إليه، فأمر بصخرة من رخام فحُفر داخلها وحُبِسَ فيها وخُتِمَ عليها، وألقيت في البحر ليُحبَس فيها إلى الأبد.

وهكذا تنتهي قصة الشيطان الذي سرق مُلك سليمان.

* * *

للباحث السوري فراس السواح كتاب اسمه «القصص القرآني ومتوازياته التوراتية» (أنصح بشدة بقراءته)، في الفصل الذي يتحدث فيه عن النبي والملك سليمان، يذكر مقارنة قصته في القرآن مع قصته التوراتية التي تقول إن سليمان عندما كبرت سنه مال لنساء الأمم التي نهى اللـه عن مخالطتها، ففتنته بعض نسائها وعبد معهن عشتروت إلهة الصيدونيين (أهل صيدا بلبنان)، فأنذره اللـه أنه سيمزق ملكه عنه.

هذه التفصيلة تؤكد ما قاله ابن كثير من أن قصة عبادة الصنم في بيت سليمان ثم سلبه ملكه هي من الإسرائيليات، والمدقق في تفاصيلها يلاحظ أنه في القصة «الإسلامية» قد تعلق بابنة الملك صيدون، وفي القصة التوراتية فإنه قد ضم لحريمه امرأة جعلته يعبد إلهة الصيدونيون، و«صيدون» هو الاسم القديم لـ«صيدا» في لبنان حاليًا، وبالمناسبة فإنها بالفعل كانت معروفة قديمًا بأنها مدينة حصينة لموقعها على البحر.

التشابه واضح إذن بين القصتين، ما يرفع احتمالات تأثير الرواية التوراتية في تلك الموصوفة بالإسلامية.

كذلك فإن في القصة أمورًا تناقض بعض البديهيات التي يؤكدها القرآن، مثل قاعدة «لا تزر وازرة وزر أخرى»، فوفقًا لهذه القاعدة القرآنية لا يُعقَل أن يعاقب الإله إنسانا على جُرم لم يرتكبه، والمفترض في القصص الديني ألا يناقض النمط العام للقصص والنصوص القرآنية.

ثم إن القرآن نفسه ضرب أمثالاً بأنبياء كانت لهم نساء غير مؤمنات، كالنبي نوح والنبي لوط، فلَم يَلُم هؤلاء الأنبياء لكفر زوجاتهم، فوفقًا لهذا المنطق لا يفترض أن يتعرض النبي سليمان للعقاب على كفر امرأة من نسائه.

هذا فضلاً عن سذاجة قصة مكاشفة آصف بن برخيا لسليمان في أمر عبادة غير اللـه في داره، فهي قصة ملتوية جدًا غير مباشرة، وبخاصة أن آصف بن برخيا يوصف بأنه كان أقرب وزراء الملك سليمان، إلى حد أنه يدخل عليه في أي وقت وأي مكان ولا يُمنَع، فهل يهاب رجل مثله أن يقول له «غير اللـه يُعبَد في دارك» مباشرة دون قصة المجلس وذكر الأنبياء؟

وفي نفس الوقت، هل الرجل الذي يوصف في كثير من المواضع بأن عنده عِلم الكتاب ويعرف اسم اللـه الأعظم، هو رجل ينخدع بشيطان متنكر في هيئة نبي؟! وهل هو يعلم ما يجري في مخدع «الجرادة» وأنها تعبد الصنم، وفي نفس الوقت يجهل أمر الرجل الذي يطوف ببيوت بني إسرائيل ويقول لهم «أنا سليمان»؟

وهل بعد أن قالت أمينة لسليمان «لقد أخذ سليمان الخاتم وأنت لست سليمان» ثم طردته، استسلم النبي للأمر الواقع مباشرة ولم يحاول أن يعرّف الناس نفسه، أو أن يجادل في أمره، وترك الشيطان نفسه يحكم قومه؟!

وبالنسبة إلى فكرة الخاتم من الأساس، فهي تُناقض النص القرآني الذي يقول بشكل مباشر وصريح «فسخرنا له»، بينما ارتباط طاعة الشياطين له بالخاتم توحي بأن التسخير للخاتم ومن يحمله أيًا من كان، وليس لسليمان بشكل خاص.

هذه القصة مهلهلة جدًا على مستوى تفسير النص القرآني، وإن كانت مثيرة على مستوى الأسطورة.

ولكنها في ذات الوقت كانت مصدرًا خصبًا لقصص خرافية أخرى ضمتها بعض كتب الحكايات (المكتوبة أصلا للتسلية وليس باعتبارها قصصًا دينيًا).. ففي كتاب «ألف ليلة وليلة» نقرأ عن صياد يعثر في البحر على قمقم أو صندوق مغلق بالرصاص، وعليه ختم الملك سليمان، فيفتحه فيخرج الجني صخر ويقول له إنه قد يقتله لأنه مكث ألف سنة، فنذر أن يكافئ من يخرجه، ثم مكث ألفًا ثانية فنذر أن يقتل من ينقذه، فخدعه الصياد ليرجع للقمقم وأغلقه عليه، ولم يدعه إلا بعد أن أعطاه العهود ألا يؤذيه، وكذلك نقرأ عن خاتم سليمان (راجع رحلة بلوقيا) وفكرة «الخاتم المتحكم بالجن» في قصص مثل قصة علاء الدين.

وهي كذلك تعبر عن حالة «تمني السُلطان والثراء السريع» في الوجدان الجمعي الشعبي، فقد جاءت من ذهن سمع صاحبه عن مُلك سليمان

وسطوته، فتمنى لو أن من الممكن أن يصل إنسان لهذا المُلك يومًا ما، وألا يكون قد انقضى بانقضاء عهد صاحبه، ولكن ما كان يحول بينه وبين أمنيته هو ارتباط هذا المُلك بشخص سليمان نفسه، وانقضاؤه بموته، فجعل هذا السُلطان الأسطوري مرتبطًا بخاتم، والسعيد من يجده، بل وألّف قصة عن أن سليمان نفسه قد فقد مُلكه عندما فقد الخاتم واسترده عندما عثر عليه (لاحظ التشابه مع قصة علاء الدين والمصباح السحري، عندما فقد علاء الدين مصباحه فصار جني المصباح تلقائيًا يخدم الشرير الذي استولى عليه).. وهي نفس فكرة «العهود» التي تقول قصتها إن النبي سليمان قد أخذها على الشياطين حين سخرهم اللـه له، وكتبها ووضعها تحت عرشه، فلما مات عُرف أمرها وقيل «قد كان سليمان يسخّر الشياطين بهذا» وعُرِفَت باسم «العهود السليمانية»، هذه الفكرة يتداولها الكثيرون حتى الآن، ويعتقدون أنهم يستطيعون من خلالها امتلاك نفس قدرة النبي سليمان المذكورة بالقرآن على تسخير الشياطين.. أي أن الأسطورة قد حوّلت شخصية سليمان من نبي ورث النبوة والمُلك ودعا اللـه فاستجاب له، إلى مجرد شخص محظوظ منحه اللـه مفاتيح التحكم في المُلك والثراء، لكنه إذا فقد هذه المفاتيح فقد مكانته.

إذن ففي قصة النبي سليمان والشيطان الذي سلبه ملكه، نجد تزاوجًا بين الإسرائيليات من ناحية، وأمنيات الوجدان الجمعي من ناحية أخرى، أضيف إليه خيال خصب فأخرج لنا هذه الأسطورة المستحقة للعرض والتحليل.

خاتمة

عودة لسؤال طُرِحَ في المقدمة: ما الغرض من هذا الكتاب؟

والإجابة: أولا أن أقول بالدليل إن الحضارة الإسلامية كان لها موروثها من «أدب الأساطير» كما للحضارات المصرية القديمة أو البابلية والسومرية

والفينيقية والإغريقية وغيرها، وإن هذه الأساطير تستحق العرض والتحليل كغيرها من أساطير الشعوب..

وثانيًا ـ وهو الأهم ـ أن أقول للقارئ بشكل عملي ألّا يصدق كل ما يقرأ، وألّا يسلم عقله لكل راوٍ أو مفسّر، بالذات لو تعلق الأمر بالقَصَص الديني أو تفسيرٍ النصوص القرآنية، فلا يكفي أن يقول الراوي «عن فلان بن فلان قال فلان نقلاً عن فلان» لتصدقه فقط لأن اسمه يوحي بالثقة، فما أكثر الأقوال المنسوبة للأشخاص في كتب التاريخ المختلفة.. إعمال العقل والمنطق مهم هنا.

وأكرر تأكيدي للقارئ أنني في قراءتي وتحليلي للقصص المعروضة بهذا الكتاب، قد حيّدت جانبًا معتقداتي الدينية وأفكاري الشخصية، واعتمادي على القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية كان لأقيّم منطقية هذه الرواية أو تلك، في ضوء معاني ومضامين وسياق هذه النصوص الدينية، فما دام صاحب الرواية يؤمن بهذا الكتاب المقدس وبهذه الأحاديث النبوية، فلنقارن روايته إذن بما في الكتاب والأحاديث، لنرى هل وقع في تناقض مع معتقداته أم أن روايته تتوافق معها.. وهو المنهج الذي أراه مناسبًا لاستعراض وتحليل أي قصص ديني.

بشكل عام، فإن موضوع «الأساطير الإسلامية» هو من الموضوعات المظلومة في كتابات المشتغلين بالتاريخ، وهو إن مثّل أهمية لأهل العلوم الدينية، بالذات علمي الحديث والتفسير، لما يرونه ضروريًا لتنقية الموروث الديني مما يصفونه بـ«المدسوس» أو «المكذوب» أو نحو ذلك حفاظًا على الدين نفسه، فهو شديد الأهمية لقارئ وكاتب التاريخ، لأن الأسطورة ـ أيًا كان انتماؤها ـ تسلط كثيرًا من الضوء على كيفية تفكير أهل زمانها، وكيفية تفاعلهم مع موروثاتهم وترجمتهم لها.. فهي ليست مجرد «تسلية» أو «استعراض للغرائب المثيرة»، بل إنها ـ بحق ـ مصدر من أهم مصادر المعرفة التاريخية، وواحدة من أهم وسائل استكشاف ذلك البحر الواسع اللانهائي: عقل الإنسان.

وليد فكري

الإسكندرية 23 سبتمبر 2017

المراجع

1. تفسير القرآن العظيم: عماد الدين إسماعيل بن كثير
2. جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري
3. الجامع لأحكام القرآن: شمس الدين القرطبي
4. التيجان في ملوك حِميَر: وهب بن منبه
5. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان: المسعودي
6. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: جلال الدين السيوطي
7. مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن خلدون
8. العِبَر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون): عبد الرحمن بن خلدون
9. تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري): محمد بن جرير الطبري
10. الكامل في التاريخ (تاريخ ابن الأثير): ابن الأثير
11. الآثار الباقية من القرون الخالية: أبو ريحان البيروني
12. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن إياس الحنفي
13. البداية والنهاية: عماد الدين إسماعيل بن كثير
14. ألف ليلة وليلة: تحقيق الشيخ محمد قطة العدوي
15. ملحمة جلجامش: تحقيق طه باقر
16. منطق الطير: فريد الدين العطار النيسابوري
17. الجبتانا: مانيتون السمنودي ـ تحقيق علي علي الألفي
18. تراثنا الروحي: سهيل بشروئي ـ مرداد مسعودي
19. حياة الحيوان الكبري: كمال الدين الدميري
20. معجم البلدان: ياقوت الحموي
21. كتاب الحيوان: أبو عثمان الجاحظ
22. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي
23. عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات: زكريا القزويني
24. عرائس المجالس: الثعلبي النيسابوري
25. معجم الأديان العالمية: د. محمد عثمان الخشت
26. أساطير وشعوب العالم: سامي ريحانا
27. موسوعة التراث الشعبي العربي: د. محمد الجوهري
28. لغز عشتار: فراس السواح
29. الأسطورة والمعنى: فراس السواح
30. مغامرة العقل الأولى: فراس السواح
31. القصص القرآني ومتوازياته التوراتية: فراس السواح
32. الرحمن والشيطان: فراس السواح
33. موسوعة تاريخ الأديان: فراس السواح
34. موسوعة أساطير العرب: د. محمد عجينة
35. جزيرة العرب قبل الإسلام: برهان الدين دلو
36. موسوعة الصوفية: الحسيني الحسيني معدي
37. الصوفيون: إدريس شاه

38. تذكرة الأولياء: فريد الدين العطار النيسابوري
39. فرعون موسى: عاطف عزت
40. أطلس تاريخ الإسلام: د. حسين مؤنس
41. تاريخ العرب قبل الإسلام:د. محمد سهيل طقوش
42. موسوعة مصر القديمة: سليم حسن
43. الديانة المصرية القديمة: د. عبد الحليم نور الدين
44. حضارة مصر والعراق: برهان الدين دلو
45. بين التاريخ والفولكلور: د. قاسم عبده قاسم
46. الأساطير المتعلقة بمصر في كتابات المؤرخين المسلمين: د. عمرو عبد العزيز منير.



تعريف بالكاتب

وليد فكري، باحث حر في مجال التاريخ، يمارس الكتابة التاريخية منذ العام 2009، ويكتب في عدد من المواقع الصحفية العربية، وله فيها عدد كبير من المقالات في تخصصه.

صدرت له كتب:

تاريخ شكل تاني (2010) – تاريخ في الظل (2012) – مصر المجهولة (2015) – دم المماليك (2016) – دم الخلفاء (2017).

المحتويات